

تساؤلات

ميلاد

تيد كازنيسكي

المجتمع الصناعي ومستقبله

بيان مفجّر الجامعات والطائرات



ترجمة رقية الكمالي

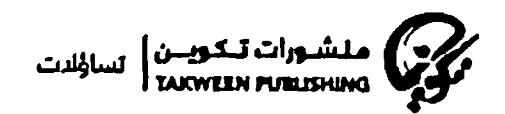
تيد كازينسكي

المجتمع الصناعي ومستقبله

بيان مفجّر الجامعات والطائرات

ترجمة

رقية الكمالي





الفهرس

عن المؤلف

كان مفجِّر الجامعات والطائرات يتصدر قائمة أكثر المطلوبين للعدالة الأمريكية، وقد خصصوا حينذاك جائزة قدرها مليون دولار لمن يعثر عليه لتسببه في ١٦ عملية تفجير منذ عام ١٩٧٨. قام فريق متخصص مكون من ١٥٠ ضابطًا من مكتب التحقيقات الفيدرالي بإجراء تحقيقات مع ما يربو على ١٠،٠٠٠ مشتبه به وأنفقوا ٥٠ مليون دولار في محاولة لردعه ولكنها باءت بالفشل، حتى أقروا أنه «ماهر للغاية» و«بارع»، وهو على دراية واسعة بكتب إعداد المتفجرات سواء تلك التي تستخدم لأغراض تجارية أو التي تستخدم في باطن الأرض، وسواء جديدة أو قديمة، كما يقوم بمفرده بتصميم أجزاء الأجهزة التي يستخدمها من الخردة المعدنية، وصولًا إلى المسامير، وذلك من أجل أن يصبح أمر تعقبه أكثر صعوبة.

لقد نال شهرة واسعة في الولايات المتحدة بوصفه *«سكارليت بمبرنيل*[1] *المفجرين بالبريد»*، كما نال شهرة إعلامية بفضل أفكاره

---

(١) «سكارليت بمبرنيل» الاسم مأخوذ عن رواية إنجليزية شهيرة يحمل بطلها الاسم نفسه كاسم مستعار يخفي وراءه هويته، حيث يقوم بمساعدة الأرستقراطيين الإنجليز على الهروب قبل إرسالهم إلى المقصلة في أعقاب الثورة الفرنسية.

الداعية إلى الحياة البدائية في جميع أنحاء العالم خلال الأحداث التي أدت إلى نشر *«المجتمع الصناعي ومستقبله»* في سبتمبر ١٩٩٥، مما أدى إلى إجبار التكنوقراطيين أنفسهم (مؤيدي التكنولوجيا) الذين يستهدفهم في تفجيراته أن يعترفوا بأن *«هناك جزء صغير داخل كل شخص منا يشبه مفجر الجامعات والطائرات»*.

عُثر على أول جهاز من أجهزة مفجر الجامعات والطائرات -وهو عبارة عن علبة سجائر بداخلها مجموعة من رؤوس الكبريت وفتائل تفجير مطاطية- في مرآب السيارات بجامعة إيلينوي بشيكاغو في ٢٥ مايو ١٩٧٨. وبدلًا من أن يصل إلى أيدي الأستاذ الجامعي بمعهد رينسلار للفنون المتعددة في نيويورك والذي كان موجهًا إليه، أعيد الجهاز بالبريد إلى جامعة نورث ويسترن حيث تسبب في إصابة شرطي بالحرم الجامعي بجروح طفيفة، والذي ساورته شكوك كافية لتجعله يقوم بفتحه.

بينما اشتعل الجهاز الثاني في جامعة نورث ويسترن بعد حوالي عام في ٩ مايو ١٩٧٩، مما أدى إلى إصابة أحد الطلاب بجروح طفيفة، فإن انفجار الجهاز الثالث في منتصف طائرة بوينغ ٧٢٧ والتي كانت في رحلة محلية بين شيكاغو وواشنطن يوم ١٥ نوفمبر ١٩٧٩ أدى إلى إصابة ١٢ شخصًا، وبعدها انخرط مكتب التحقيقات الفيدرالي في الأمر، حيث تسبب هذا الانفجار الثالث في إعادة الانفجارين الأول والثاني إلى دائرة الضوء، ووضع قدم الأجهزة الفيدرالية على أول طريق البحث المضني وغير المثمر عن *«عدو التكنولوجيا*

القاتل» بأمريكا. على الرغم من ذلك، فإن هذا التطور الجديد في القضية لم يردعه عن إرسال كتاب مفخخ إلى برسي وود -رئيس الخطوط الجوية الاتحادية- والذي أصابه في ليك فورك بإيلينوي يوم ١٠ يونيو ١٩٨٠. ذلك الهجوم على وود دفع مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى أن يطلقوا على هذا المفجر المتسلسل المتملص اسم «مفجر الجامعات والطائرات»، بالإنجليزية «**Unabomber**» حيث يشير المقطع «**Un**» إلى أول حرفين من كلمة «**University**» وتعني «**جامعة**»، كما يشير المقطع «**Una**» إلى الحروف الأولى من كلمتي «**United Airlines**» وهي الشركة التي حدث التفجير الثالث على متن إحدى **الطائرات** بها.

وفي أول بيان رسمي له في عام ١٩٩٥ لصحيفة نيويورك تايمز، اعترف «مفجر الجامعات والطائرات» بأن وضع قنبلته التالية في أحد الحجرات الدراسية في كلية الأعمال بجامعة يوتا في الثامن من نوفمبر عام ١٩٨١ كان «خطأً»، حيث لم تصب أحدًا بضرر.

وبعد شهرين من انفجار القنبلة الأنبوبية يوم ٢ مايو ١٩٨٢ والتي أصابت أحد الجامعيين غير محدد الهوية في جامعة فاندربيلت بناشفيل، قام مفجر الجامعات والطائرات بتفجيره الأول في جامعة كاليفورنيا يوم الثاني من يوليو ١٩٨٢. أثناء عطلة نهاية الأسبوع الوطنية، وُجدت قنبلة في طرد على أرضية استراحة تناول القهوة في قسم الهندسة بحرم جامعة بيركلي، حيث تضرر وجه أحد أساتذة الجامعة المتخصصين في الإلكترونيات وكذلك يداه بشكل حاد بينما

كان يفتح الطرد الذي ظن مخطئًا أنه «أداة قياس». إنها أحد الألعاب النارية! وبعد ثلاث سنوات، توجه مفجر الجامعات والطائرات إلى الجزء الأهم في بيركلي، وترك قنبلة في طرد في غرفة الحاسب الآلي يوم ١٥ مايو ١٩٨٥ والتي أدت إلى خسارة أحد خريجي قسم الرياضيات أصابع يده اليمنى جراء قيامه بفتح ذلك الطرد.

وبعد أقل من شهر وتحديدًا في ١٣ يونيو ١٩٨٥، تكرر الحادث مرة أخرى مع مؤسسة بوينغ، حيث تم إرسال قنبلة إلى مكتب واشنطن ولكن جرى إبطال مفعولها قبل أن تتسبب في أي أضرار. إلا أن الأتعس حظًّا كان أحد الباحثين المساعدين لأحد الأساتذة الجامعيين بجامعة ميتشيغان. فعلى الرغم من إرسال الطرد إلى بيت الأستاذ الجامعي يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٥، أُصيب مساعده حين قام بفتح الطرد له. ماذا نسمي ذلك تكتيكات الدروع البشرية أم ماذا؟

في الشهر التالي، غيَّر مفجر الجامعات والطائرات من أساليبه أيضًا، حيث أخفى قنبلته التالية تحت ألواح خشبية في مرآب السيارات بأحد محلات بيع أجهزة الحاسب الآلي في ساكرامنتو بكاليفورنيا في ١١ ديسمبر ١٩٨٥. عثر مدير المحل على الجهاز وما لبث أن انحنى ليلتقطه فتمزق بدنه جراء الانفجار الذي وقع مباشرة، وبذلك كان أول شخص يلقى مصرعه ممن استهدفهم مفجر الجامعات والطائرات. ومن الواضح أن ذلك الأمر بث فيه الشجاعة، فحاول أن يكرر هذا الأسلوب في الجهة الخارجية من أحد محلات الحاسب الآلي بمدينة سولت ليك يوم ٢٠ فبراير

١٩٨٧. ومرة أخرى، أُصيب مدير المحل، في حين كان هناك شخص ما يرتدي غطاءً للرأس وظله كبير وداكن يراقب الوضع في مرآب السيارات، وقد نبهت إحدى العاملات مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى احتمالية أن يكون هو مفجر الجامعات والطائرات. وكانت تلك المرة الوحيدة التي كان فيها قريبًا من القبض عليه، وأقر مكتب التحقيقات الفيدرالي أنفسهم أن الصورة التي رسمها الرسام من وصف الشاهد كانت «سيئة الجودة»، حيث لم يكن بوسعهم حتى التأكد من لون شعره أو تقدير عمره بأي حال من الأحوال، كان تقييم مكتب التحقيقات الفيدرالي لدافع مفجر الجامعات والطائرات غير واضح وطالما صوروه على أنه شخص «أبله منطوٍ» يتصرف انطلاقًا من دوافع شخصية بعيدة الاحتمال كما لو أنه لم يتمكن من السفر بسبب عدم وجود مقعد شاغر على الطائرة أو سُلبت منه وظيفته بسبب إحلال نظام الحاسب الآلي. ومع مرور السنوات دون التوصل إلى حل -وهي نتيجة متوقعة بالنظر إلى أساليبهم- تم حل فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي تولى التحقيق في هذه القضية.

١٦ تفجيرًا خلال ١٧ عامًا: مسار المتفجرات المرسلة بالبريد		
التاريخ	المكان	ماذا حدث
٢٥ مايو ١٩٧٨	جامعة نورث وسترن إيفانستون، إلينوي	طرد مفخخ، أسفر عن إصابة شخص واحد
٩ مايو ١٩٧٩	جامعة نورث وسترن	قنبلة في صندوق، أسفرت عن إصابة شخص واحد
١٥ نوفمبر ١٩٧٩	الخطوط الجوية الأمريكية من شيكاغو إلى واشنطن	قنبلة للتسليم إلى مكان مجهول انفجرت على متن طائرة بوينغ ٧٢٧. أسفرت عن إصابة ١٢ شخصًا
١٠ يونيو ١٩٨٠	ليك فوريست، إلينوي	طرد مفخخ، أسفر عن إصابة شخص واحد
٨ أكتوبر ١٩٨١	جامعة يوتا، مدينة سولت ليك	قنبلة في حجرة دراسية، لم تسفر عن أي إصابات
٥ مايو ١٩٨٢	جامعة فاندربيلت، ناشفيل	قنبلة أنبوبية، أسفرت عن إصابة شخص واحد
٢ يوليو ١٩٨٢	جامعة كاليفورنيا في بيركلي	قنبلة أنبوبية، أسفرت عن إصابة شخص واحد
١٥ مايو ١٩٨٥	جامعة كاليفورنيا في بيركلي	قنبلة في غرفة الحاسب الآلي، أسفرت عن إصابة شخص واحد بإصابات بالغة
١٣ يونيو ١٩٨٥	شركة بيونغ، أوبورن، واشنطن	طرد مفخخ، لم يسفر عن أية إصابات

١٥ نوفمبر ١٩٨٥	آن أربور، ميتشيغان	طرد مفخخ أُرسل إلى بيت أحد الأساتذة بجامعة ميتشيغان، أسفر عن إصابة شخص واحد
١١ ديسمبر ١٩٨٥	ساكرامنتو، كاليفورنيا	انفجرت قنبلة خارج محل أجهزة حاسب آلي، أسفرت عن مقتل شخص واحد
٢٠ فبراير ١٩٨٧	مدينة سولت ليك	انفجرت قنبلة خارج محل أجهزة حاسب آلي، أسفرت عن إصابة شخص واحد
٢٢ يونيو ١٩٩٣	تيبورون، كاليفورنيا	طرد مفخخ أُرسل إلى أحد علماء الوراثة، أسفر عن إصابة شخص واحد بإصابات بليغة
٢٤ يونيو ١٩٩٣	جامعة ييل، نيو هيفن	طرد مفخخ أُرسل إلى مكتب أحد أساتذة الجامعة، أسفر عن إصابة شخص واحد
١٠ ديسمبر ١٩٩٤	نورث كالدويل، نيو جيرسي	طرد مفخخ أُرسل إلى بيت توماس موسر، مسؤول إعلانات بنيويورك، أسفر عن مقتل شخص واحد
٢٤ إبريل ١٩٩٥	ساكرامنتو، كاليفورنيا	طرد مفخخ أُرسل إلى مكاتب جماعات الضغط في جمعية الغابات في كاليفورنيا، أسفر عن مقتل شخص واحد

كانت الأمور تبدو كما لو أنها هدأت باستثناء حادث تفجير مبنى التجارة العالمي عام ١٩٩٣ على يد المتطرفين الإسلاميين، وكما يبدو أدى ذلك إلى مقتل موظفي وكالة المخابرات المركزية الذين يقومون عادة بصف سياراتهم في نفس الطابق الذي كانت به الشاحنة المفخخة.

وصل جهازان جديدان تابعان لمفجر الجامعات والطائرات في غضون أيام، انفجر أحدهما في ٢٢ يونيو ١٩٩٣ في حرم تيبورون التابع لجامعة كاليفورنيا ما أدى إلى إصابة عالم وراثة بجروح بليغة، بينما انفجر الآخر عقب يومين على الجانب الآخر من القارة في جامعة يال وسبب جروحًا بليغة لمبرمج حواسب بارز «ديفيد جيلينتر». لم يهدر مفجر الجامعات والطائرات وقته أثناء «تقاعده»، حيث أنه عمل على تحديث الخليط المتفجر في الجهازين الجديدين، فبعد أن كان يستخدم البارود قام باستبدال نترات الأمونيوم/ حشوات الألومنيوم به، كما استبدل بالفتيل المطاطي فتيلًا إلكترونيًّا. وفي غضون تلك الفترة، قام مفجر الجامعات والطائرات بالتواصل للمرة الأولى مع جريدة نيويورك تايمز، حيث وضح بإيجاز أن القنابل تعود إلى «فريدم كلاب» وهم الأناركيون[1] المناهضون للتكنولوجيا.

لم يفلح فريق مكتب التحقيقات الفيدرالي -الذي سرعان ما أعيد لم شمله للقبض على مفجر الجامعات- في إنقاذ حياة «توماس

(١) «الأناركية»: فلسفة سياسية تسعى إلى تحجيم أو إلغاء تدخل السلطة في سلوك العلاقات الإنسانية، وتدعو إلى رفض التكنولوجيا وتبنِّي أسلوب الحياة البدائية.

موسر» أحد المسؤولين التنفيذيين بشركة بيرسون - مارستيلر وهي شركة الإعلانات المسؤولة عن «الغسل الأخضر»[1] لكارثة إكسون فالديز البيئية[2]. أُرسلت «هدية الكريسماس» بالبريد إلى منزله الكائن في سبين درايف إن كلادويل بنيو جيرسي في العاشر من ديسمبر ١٩٩٤، وفقد موسر رأسه (حرفيًا!) عندما فتحها، وهذا درس له كي يتعلم ألا ينتظر الكريسماس، أليس كذلك؟

عزى مكتب التحقيقات الفيدرالي الهجوم الأخير إلى مفجر الجامعات والطائرات لرد فعله على الحادث الذي قام فيه الإمعة «تيم مك في» بتفجير شاحنة مفخخة بالمبنى الفيدرالي بأوكلاهوما، فالأمر بالتأكيد لم ينل رضاه: «نحن ندين بشدة أعمال الذبح العشوائي التي ألَمّت بمدينة أوكلاهوما». وبعد ذلك بأيام قليلة، وتحديدًا في ٢٤ إبريل ١٩٩٥، وصل صندوق مكعب الشكل مقاسه ١٠ بوصات ملفوف بإحكام بشريط إلى مقر جمعية الغابات في كاليفورنيا، وهم جماعات ضغط من مؤيدي قطع الأشجار وأنصار حركة «وايز يوس»[3]، وهم محل احتقار جماعات «الأرض أولاً»[4]

(١) «ظاهرة الغسل الأخضر»: تضليل المستهلكين حول الممارسات البيئية للشركة أو الفوائد البيئية لمنتج أو خدمة ما، وتتضمن تحريفًا للوقائع والحقيقة من أجل أن تظهر الشركة اجتماعية و/ أو مسؤولة بيئيًا في أعين الجمهور المستهدف.

(٢) المقصود حادث تسرب نفط إكسون فالديز الذي حدث عام ١٩٨٩ والذي دمر شاطئ المحيط بمضيق الأمير ويليام، ما أدى إلى تقليص عدد الكائنات البحرية.

(٣) «وايز يوس»: حركة تتألف من جماعات تدعم توسيع حقوق الملكيات الخاصة وتقليص التنظيم الحكومي للممتلكات العامة. نشأت حركة وايز يوس من المعارضة للحركات البيئية، ويراها النقاد بوصفها حركة مناهضة لحماية البيئة.

(٤) «الأرض أولا»: مجموعة من الناشطين والمدافعين عن البيئة والقضايا البيئية، حيث

في كل مكان. ومن باب التسلية، أطلق الفريق دعابات حول احتمالية أن يكون الصندوق قنبلة وعندما لم تستطع سكرتيرة رئيس الجمعية فتح الصندوق، قامت بما كان يتوجب عليها القيام به وأعطته لرئيسها، على الرغم من أنه كان موجهًا إلى ويليام دينسون الذي سبق جيلبرت موراي في المنصب. يرى البعض أن ذلك الخطأ في توجيه الصندوق يعد دليلًا على أنه كان هناك تسليم سريع من قبل مفجر الجامعات، إلا أن موراي أو دينسون -النتيجة واحدة في كلتا الحالتين- رئيس جمعية الغابات في كاليفورنيا قد تم اغتياله بنجاح.

كان ذلك آخر تفجير يقوم به مفجر الجامعات والطائرات حتى الآن. وبعد مرور يومين، كتب «فريدم كلاب» شروطه في رسالة مؤرخة بـ ٢٦ إبريل ١٩٩٥ أرسلها إلى صحيفة نيويورك تايمز وغيرها من الصحف الوطنية الأمريكية وكذلك إلى ديفيد جيليرنتر، اختصاصي البرمجيات بجامعة يال الذي أصيب في ١٩٩٣. ولأن موظفي نيويورك تايمز ساورتهم شكوك حول كون الرسالة تتضمن قنبلة، فقد أرسلوها دون فتحها إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولكنها رُدت إليهم بعد ذلك في وقت قريب. وانطلاقًا من النجاح الذي حققه في فعلته هذه ست عشرة مرة في غضون بضع سنين، فقد دفع ذلك الإعلام إلى أن يقول: *«نحن نشعر أن*

قامت برفع شعار «لا مساومة في الدفاع عن أمنا الأرض»، وهي تتبنى فكرة العمل المباشر في التصدي أو إيقاف أو التخفيف من القوى المسببة للأضرار سواء للأرض أو سكانها.

الوقت قد آن للتصدي للأفكار المناهضة للمجتمع الصناعي» . لقد قطع على نفسه وعدًا بألا يُقدِم على فعل «إرهابي» مرة أخرى إذا تم نشر البيان الذي كتبه بنفسه بعنوان «*المجتمع الصناعي ومستقبله*» . أما بالنسبة إلى قلقهم بخصوص النواحي الأخلاقية المتعلقة «بالابتزاز» و«إعطاء الإرهابيين الفرصة لينالوا شهرة إعلامية» التي من المفترض أن تتحقق بنشرهم للبيان، كان لدى جريدة نيويورك تايمز السرعة الكافية لنشر بيان مفجر الجامعات والطائرات.

ربما من أجل أن يثبت أن للقلم قوة لا تقل عن قوة القنابل، أرسل مفجر الجامعات والطائرات بعد ذلك سلسلة من الخطابات لكي يضمن خضوع محرري الجريدة لعرضه. وصل أول خطاب إلى الحائزين على جائزة نوبل لعام ١٩٩٣ في مجال الأحياء والهندسة الوراثية، وهما «ريتشارد روبرت» التابع لبوسطن بايوتك، و«فيليب شارب» من معهد ماساتشوستس للتقنية يوم ٨ مايو ١٩٩٥، ينبههما فيه إلى مدى رفض «فريدم كلاب» للبحث الذي قاما بإعداده. وفي نهاية يونيو ١٩٩٥، تلقَّى مطار لوس أنجلوس خطابًا يهدد بنسف إحدى الطائرات يومًا ما، ما حثهم على القيام بعمليات تأمينية مكلفة على نطاق واسع، وخطاب آخر يقول فيه إن الخطاب الأول كان عبارة عن مزحة. ولسوء الحظ بالنسبة إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي، يوم ٢ يوليو ١٩٩٥ والذي يوافق الذكرى الثالثة عشرة لحادث التفجير الأول الذي قام به مفجر الجامعات والطائرات في بيركلي، وصل طرد آخر هناك من «فريدم كلاب». وعلى الرغم من التحذيرات العامة من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى جميع

العاملين، قام أحد أساتذة علم النفس ممن يدلون بتصريحات للإعلام بفتح الطرد، إلا أنه تنفس الصعداء بعد أن وجد أن الطرد لا يحوي سوى نسخة من مقال *«المجتمع الصناعي ومستقبله»* وقائمة من الأسئلة المنطقية، كلها في الواقع تفند الصورة التي رسمها الأستاذ الجامعي عن مفجر الجامعات والطائرات باعتباره مريضًا نفسيًّا تنقصه الدوافع المنطقية.

وفي ١٩ سبتمبر ١٩٩٥، انقسمت الصحف في آرائها حول الموضوع ولكنها كانت تشهد هذا الانقسام قبل ذلك بفترة. ففي نهاية مايو ١٩٩٥، نُشر خطاب كتبه مفجر الجامعات والطائرات إلى أحد العلماء الأمريكان يدين فيه العلم الحديث بسبب «غطرسته» وتصَّدر غلاف صحيفة نيوزويك. ولمدة أسابيع بعد ذلك، واصلت هذه الصحيفة ذات الشهرة العالمية طباعة خطابات القراء التي يمدحون فيها أفكار «فريدم كلاب» حول حماقة الحياة الحديثة. وكانت المفاوضات الأغرب هي تلك التي جرت بين مفجر الجامعات والطائرات وصحيفة بنتهوس، حيث وافق مفجر الجامعات والطائرات على نشر بيانه في تلك الجريدة على أن يحتفظ بحقه في قتل شخص آخر من مؤيدي التكنولوجيا بعد ذلك بسبب «الجودة الرديئة» للصحيفة. وكما كان متوقعًا، قدم رئيس تحرير الجريدة «بوب جوسيون» على مضض عرضًا إلى مفجر الجامعات والطائرات بأن يخصص له عمودًا شهريًّا بالجريدة كبديل من ذلك، وهو العرض الذي لم يتحقق في نهاية الأمر لأن جريدة نيويورك تايمز وجريدة واشنطن بوست وافقتا على نشر البيان بشكل مشترك. ولكي يأخذا

حيطتهما وحذرهما، لم تمضيا في الأمر سوى بعد الحصول على موافقة المدعي العام «جانيت رينو» ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالي «لويس فريش» على قرارهما، بعد أن أكدت كلتاهما على أن نشر البيان هو لدواعي تأمين المجتمع، وليس من أجل الصحافة في حد ذاتها. بلغت تكلفة كل ورقة ٣٠،٠٠٠ دولار، ولكن لأسباب فنية نُشر مقال *«المجتمع الصناعي ومستقبله»* الذي احتل ٦ صفحات من الحجم العريض كملحق في واشنطن بوست. وتم نشر الملحق عن عمد في منتصف الأسبوع لكي يتأكدوا من نشره بأعداد أقل، وهو الاقتراح الذي قُدم من جانب الصحفيين. كان «تايم وارنر» كريمًا بدرجة كافية جعلته ينشر مقال *«المجتمع الصناعي ومستقبله»* على الإنترنت وبعد يومين، في ٢١ سبتمبر ١٩٩٥، نشرت جريدة أوكلاند تريبيون أيضًا البيان. وكان من المفترض أن بإمكان العديد من القراء التعرف على كاتبه من كتابته ومن ثمَّ يُبلغون عنه -لم تكن لتفعل ذلك، أليس كذلك؟- ولكن في حقيقة الأمر فإن مقال *«المجتمع الصناعي ومستقبله»* أشعل شرارة الجدل في الولايات المتحدة، بسبب ما يتميز به من اختزالية[1] ونزعة رجولية.

وفي نهاية المطاف، يمكننا القول إن مقال *«المجتمع الصناعي ومستقبله»* كان سلاحًا ذا حدين. فعلى الرغم من نجاح مفجر الجامعات في إيصال وجهة نظره تجاه التكنولوجيا والتي شاطره إياها الكثيرون، مع التحفظ -بالطبع- على الأسلوب العدواني

---

(١) «الاختزالية»: تعني نهجًا لفهم طبيعة الأشياء المُعقدة عن طريق اختزالها إلى تفاعلاتٍ من أجزائها، أو إلى أشياء أكثر بساطةً أو أشياء أكثر أساسيةً.

الذي انتهجه من قتل وجرح للأبرياء، كان المقال سببًا في إلقاء القبض عليه.

ففي صيف عام ١٩٩٥، وقع المقال في يد زوجة شقيق مفجر الجامعات التي تُدعى «ليندا باتريك» والتي كانت تتابع القصة منذ فترة. ثم ما لبثت أن عرضت الأمر على زوجها «ديفيد كازينسكي» موضحةً له شكوكها بأن المقال يتضمن أفكارًا كان شقيق زوجها «تيد كازينسكي» قد طرحها من قبل. اتخذ ديفيد القرار الأكثر صعوبة في حياته حيث سمح لمحاميه بتسليم اسم أخيه والمقال لمكتب التحقيقات الفيدرالي. وفي ٣ إبريل ١٩٩٦، صدرت مذكرة اعتقال في حقه ليلقي المحققون الفيدراليون القبض عليه في مقصورته في مونتانا، حيث عثروا فيها على قنبلة مكتملة وأجزاء أخرى من القنابل، وحوالي ٤٠ ألف صفحة من مجلاته وصف فيها جرائمه بالتفصيل. وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة، حيث تم إرساله إلى منشأة السجون الإدارية الأمريكية شديدة الحراسة في فلورنسا بولاية كولورادو. وحتى الآن، يقبع كازينسكي في السجن لقاء جرائمه وقد تجاوز الـ ٧٦ عامًا[١].

هل من غير الأخلاقي أن نحاول التصدي لأولئك الذين تمثل أفعالهم اعتداءً غير مسبوق على الحياة؟ أم أنه من غير الأخلاقي أن نقبل فحسب أدوارنا السلبية في روح العصر الحديث الذي يسوده

(١) المصدر مقال «ملحمة العبقري المجنون: قصة أول ذئب منفرد في العالم» بقلم محمد محمود السيد، جريدة إضاءات، بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ٢٠١٧.

تشاؤم ما بعد الحداثة وعدم المعرفة؟ وكما قال أحد الأصدقاء في كاليفورنيا، عندما تكون العدالة ضد القانون، فإن الخارجين عن القانون وحدهم هم الذين يمكن أن يؤثروا على العدالة.

إن مقال مفجر الجامعات والطائرات الطويل لن يخضع للنقاش هنا، حيث أن نقاط قوته وضعفه تستحق تدقيقًا مستقلًا. سلطت هذه الملاحظات الضوء بشكل أساسي على بعض التعليقات المتنوعة التي تتسم معظمها بالسلبية بدلًا من تسليط الضوء بشكل مباشر على الهدف منها. غالبًا ما يتعلق الأمر بكون المرء قادرًا على التعلم بسهولة أكثر عن المجتمع بمراقبة ردود فعله -في جميع الجوانب- تجاه أولئك الذين يتحدونه.

أحد الشاهدين على الموقف من الغرب الأوسط عبر قائلًا: «حسنًا، إنني أؤمن بفريدم كلاب/ مفجر الجامعات والطائرات، حيث أن أفكاره منتشرة في جميع أرجاء البلاد، فداخل رأس كل شخص منا هناك رغبة الاستماع إلى غضبك الخاص». أو كما أقرت آن آيسنبرج -من جامعة بوليتكنيك في بروكلن-: «فتش بداخل كل شخص فستجد بداخله نزعة كارهة للتكنولوجيا».

ومن العمود الأسبوعي «لروبرت بيركنسن» في جريدة بولدر ويكلي ٦ يوليو ١٩٩٥، خَلص إلى أن: «وسط هذا الجنون الساحق للنمو الاقتصادي الجامح والتفكك ما بعد الحداثي، هل حقًا يمكن أن نعتبر ذلك الحنين أو الغضب جنونًا؟ بالنسبة إلى الكثيرين، لا سيما أولئك الذين يعيشون بشق الانفس في وظائف غير مرضية

ويتوقون إلى النظر إلى النجوم التي تحجبها أضواء الشوارع المشعة، فإن الإجابة على الأرجح: لا. وبالنسبة إليهم، ربما لا يعتبر مفجر الجامعات شخصًا شريرًا سيكوباتيًّا، وقد يتمنون له الحظ السعيد».

أناركييون مستقلون مجهولو الهوية
ص. ب. ١١٣٣١، يوجين
أوريغون ٩٧٤٤٠،
الولايات المتحدة الأمريكية

مقدمة

١- كانت الثورة الصناعية ونتائجها كارثة بالنسبة للجنس البشري، لقد أدت إلى زيادة هائلة في متوسط أعمار سكان البلدان «المتقدمة» المتوقع، ولكنها زعزعت استقرار المجتمع، جعلت الحياة بائسة، عرّضت البشر للإذلال والمعاملة المهينة، نتج عنها معاناة نفسية واسعة (فضلًا عن المعاناة الجسدية في العالم الثالث)، وتسببت بأضرار فادحة للطبيعة. كما أن التطور المستمر في مجال التقنية سوف يؤدي إلى تفاقم الوضع، ويعرض الإنسان للمزيد من الإهانات، ويضاعف الإضرار بالطبيعة، مما قد ينجم عنه اضطرابات اجتماعية ومعاناة نفسية، إلى جانب المعاناة الجسدية حتى في البلدان «المتقدمة».

٢- قد ينجو النظام الصناعي-التكنولوجي أو ينهار. وفي حالة النّجَاة والاستمرارية، قد يخفّض قليلا من مستوى المُقَاسَاة الجسدية والسيكولوجية، بعد اجتياز فترة إصلاح وتأقلم طويلة ومؤلمة، ولكن مقابل تحويل البشر والعديد من الكائنات الحية الأخرى وبشكل دائم إلى منتجات هندسية وتروس بحتة في الآلة

الاجتماعية. علاوة على ذلك، سوف ينتج عن استمرارية النظام عواقب حتمية: فلا توجد طريقة لإصلاح أو تعديل النظام لمنعه من قهر الناس وحرمانهم من الكرامة والاستقلالية.

٣- إن انهار النظام، فإن العواقب ستظل مأساوية للغاية. ولكن كلما تنامى النظام، تفاقمت كارثية انهياره. ومن ثم، إذا كان من المفترض انهياره، يُفضل أن يكون عاجلًا وليس آجلًا.

٤- بناءً على ذلك، نؤيد قيام ثورة ضد النظام الصناعي. وقد تتضمن هذه الثورة أعمال عنف. تندلع فجأة أو تتدرج نسبيًا في بضعة عقود من الزمان. لا يمكننا التنبؤ بأيٍ من ذلك، غير أننا نحدد الخطوط العريضة للإجراءات التي ينبغي أن يتخذها كارهو النظام الصناعي من أجل تمهيد طريق الثورة ضد هذا الشكل المجتمعي. ولن تكون ثورة سياسية لأنها لا تهدف إلى الإطاحة بحكومات بل إلى تدمير الأسس الاقتصادية والتكنولوجية للمجتمع.

٥- في هذا البحث، سنركز فقط على بعض التطورات السلبية الناشئة عن النظام الصناعي - التكنولوجي. بينما سنوجز ذكر تطورات أخرى أو نتجاهلها تمامًا، وهذا لا يعني اعتبارنا التطورات الأخرى غير مهمة. إنما لأسباب عملية، يجب اقتصار النقاش على المجالات التي لم تحظ باهتمام عام كافٍ أو تلك التي لدينا مقولات جديدة حولها، على سبيل المثال: ثمة حركات بيئية وبرية متطورة، لكننا لم نكتب سوى القليل عن التدهور البيئي أو تدمير الطبيعة البرية، على الرغم من أننا نعتبرها على قدر كبير من الأهمية.

٦- يتفق الجميع تقريبًا على أننا نعيش في مجتمع مضطرب بشدة، والحركة اليسارية واحدة من أكثر المظاهر انتشارًا الدالة على هذا الاضطراب والجنون، لذا فإن مناقشة السيكولوجية اليسارية قد تكون بمثابة مقدمة جيدة لمناقشة مشاكل المجتمع الحديث بشكل عام.

٧- ما هي مبادئ الحركة اليسارية؟ أثناء النصف الأول من القرن العشرين، كان يمكن تحديد هوية اليسارية عبر ارتباطها الفعلي بالاشتراكية. أما اليوم، فقد أصبحت الحركة مجزأة وغير واضحة الملامح، حتى إنه يصعب تسميتها باليسارية. عندما نتحدث عن اليساريين في هذا البحث، نأخذ بعين الاعتبار الاشتراكيين، الشيوعيين، جماعات التغيير السياسي، النسويات، نشطاء المثليين والإعاقة، نشطاء حقوق الحيوان، وما إلى ذلك.

وقد لا يعتبر كل من يرتبط بإحدى هذه الحركات يساريًا. لكننا لا نناقش النزعة اليسارية باعتبارها حركة سياسية أو تيارًا فكريًا يسعى لتغيير المجتمع نحو حالة أكثر مساواة بين أفراده، بل كنموذج سيكولوجي، أو بالأحرى مجموعة من النماذج المترابطة. وبالتالي، سينبثق مفهومنا لليسارية في سياق مناقشتنا لعلم النفس اليساري (انظر أيضًا الفقرات ٢٢٧-٢٣٠).

٨- رغم ذلك، مايزال تصورنا للحركة اليسارية أقل وضوحًا مما نتمنى، ولا يبدو أن ثمة علاج لهذا. وكل ما نحاول القيام به

هو الإشارة بطريقة فَظّة وتقريبية إلى الميول النفسية التي نعتقد أنها تشكل القوة الدافعة الرئيسية للحركة اليسارية الحديثة. ولا ندعي على الإطلاق قول الحقيقة التامة عن السيكولوجية اليسارية. كذلك فإن نقاشنا ينطبق فقط على اليسارية الحديثة، ونترك المجال مفتوحًا أمام إمكانية تطبيقه على اليساريين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

٩- الاتجاهان النفسيان اللذان يشكلان اليسارية الحديثة هما «مشاعر الدونية» و«الإفراط في التنشئة الاجتماعية». وإذ تعد الأولى من سمات الحركة اليسارية الحديثة عامة، فإن الثانية لا تميز إلا فئة معينة منها. غير أن هذه الفئة ذات تأثير بالغ الأهمية.

مشاعر الدونية

١٠- لا نقصد «بالمشاعر الدونية» المعنى الدقيق والحرفي للكلمة، بل طيفًا من السمات المتلازمة، منها: تدني احترام الذات، مشاعر العجز والوَهَن، الميول الاكتئابية، الانهزامية، الشعور بالذنب، كراهية الذات... إلخ. أدّعي هنا أن اليساريين المعاصرين لديهم بعض من هذه المشاعر (أغلبها أو أقلها مكبوتة) وأن هذه المشاعر حاسمة في تحديد الاتجاه اليساري الحديث.

١١- عندما يفسر أحد ما كل ما يقال عنه (أو عن مجموعات يعرفها) تقريبًا بأنه مهين وازدرائي؛ نستنتج أن لديه مشاعر دونية أو نقصًا في احترام الذات. ويتجلى هذا الاتجاه بين الناشطين في

مجال حقوق الأقليات، سواءً كانوا ينتمون إلى الأقليات التي يدافعون عن حقوقها أم لا. لذا، نلاحظ حساسيتهم الشديدة تجاه الكلمات المستخدمة في تلقيب الأقليات وأي شيء يُقال عنها، على سبيل التوضيح: مفردات «زنجي» للأفريقي، «شرقي» للآسيوي، «معاق» للإنسان العاجز أو «كتكوت» للمرأة، لم تكن تدل على إهانة الملقب بها أو الانتقاص من قدره، كما تعتبر كلمات مثل «واسع أو Broad» و«كتكوت أو chick» مرادفات أنثوية لـ«المثلي الشاذ»، «الشاب المتأنق» أو «الخَدِين المتأنث».

غير أن النشطاء أنفسهم هم من منحوها دلالات سلبية. واسترسل بعض النشطاء في مجال حقوق الحيوان إلى حد رفض كلمة «الحيوانات الأليفة» والإصرار على استبدالها بـ«حيوانات مرافقة». ويذهب علماء الأنثروبولوجيا اليساريون إلى أبعد من ذلك عندما يتجنبون قول أي شيء يمكن تفسيره على أنه سلبي عن الشعوب البدائية، واستبدال مسمى الشعوب «البدائية» بـ«الأمية». يبدو أنهم شبه مصابين بجنون الارتياب والذعر من الكلمات التي قد توحي بأن أي ثقافة بدائية هي أقل شأنًا من ثقافتنا. (ونحن ضمنًا لا نعني ذلك؛ إنما نشير فقط إلى فرط الحساسية لدى علماء الأنثروبولوجيا اليساريين).

١٢- لا يقيم الأشخاص الأكثر حساسية حول المصطلحات «السياسية الخاطئة» في غيتوات السود أو في أحياء منعزلة اعتيادية، ولا ينتمون إلى المهاجرين الآسيويين، أو إلى النساء المعنفات، ولا

هو الإشارة بطريقة فَظّة وتقريبية إلى الميول النفسية التي نعتقد أنها تشكل القوة الدافعة الرئيسية للحركة اليسارية الحديثة. ولا ندعي على الإطلاق قول الحقيقة التامة عن السيكولوجية اليسارية. كذلك فإن نقاشنا ينطبق فقط على اليسارية الحديثة، ونترك المجال مفتوحًا أمام إمكانية تطبيقه على اليساريين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

٩- الاتجاهان النفسيان اللذان يشكلان اليسارية الحديثة هما «مشاعر الدونية» و«الإفراط في التنشئة الاجتماعية». وإذ تعد الأولى من سمات الحركة اليسارية الحديثة عامة، فإن الثانية لا تميز إلا فئة معينة منها. غير أن هذه الفئة ذات تأثير بالغ الأهمية.

مشاعر الدونية

١٠- لا نقصد «بالمشاعر الدونية» المعنى الدقيق والحرفي للكلمة، بل طيفًا من السمات المتلازمة، منها: تدني احترام الذات، مشاعر العجز والوَهَن، الميول الاكتئابية، الانهزامية، الشعور بالذنب، كراهية الذات... إلخ. أدّعي هنا أن اليساريين المعاصرين لديهم بعض من هذه المشاعر (أغلبها أو أقلها مكبوتة) وأن هذه المشاعر حاسمة في تحديد الاتجاه اليساري الحديث.

١١- عندما يفسر أحد ما كل ما يقال عنه (أو عن مجموعات يعرفها) تقريبًا بأنه مهين وازدرائي؛ نستنتج أن لديه مشاعر دونية أو نقصًا في احترام الذات. ويتجلى هذا الاتجاه بين الناشطين في

مجال حقوق الأقليات، سواءً كانوا ينتمون إلى الأقليات التي يدافعون عن حقوقها أم لا. لذا، نلاحظ حساسيتهم الشديدة تجاه الكلمات المستخدمة في تلقيب الأقليات وأي شيء يُقال عنها، على سبيل التوضيح: مفردات «زنجي» للأفريقي، «شرقي» للآسيوي، «معاق» للإنسان العاجز أو «كتكوت» للمرأة، لم تكن تدل على إهانة الملقب بها أو الانتقاص من قدره، كما تعتبر كلمات مثل «واسع أو Broad» و«كتكوت أو chick» مرادفات أنثوية لـ«المثلي الشاذ»، «الشاب المتأنق» أو «الخَدِين المتأنث».

غير أن النشطاء أنفسهم هم من منحوها دلالات سلبية. واسترسل بعض النشطاء في مجال حقوق الحيوان إلى حد رفض كلمة «الحيوانات الأليفة» والإصرار على استبدالها بـ«حيوانات مرافقة». ويذهب علماء الأنثروبولوجيا اليساريون إلى أبعد من ذلك عندما يتجنبون قول أي شيء يمكن تفسيره على أنه سلبي عن الشعوب البدائية، واستبدال مسمى الشعوب «البدائية» بـ«الأمية». يبدو أنهم شبه مصابين بجنون الارتياب والذعر من الكلمات التي قد توحي بأن أي ثقافة بدائية هي أقل شأنًا من ثقافتنا. (ونحن ضمنًا لا نعني ذلك؛ إنما نشير فقط إلى فرط الحساسية لدى علماء الأنثروبولوجيا اليساريين).

١٢- لا يقيم الأشخاص الأكثر حساسية حول المصطلحات «السياسية الخاطئة» في غيتوات السود أو في أحياء منعزلة اعتيادية، ولا ينتمون إلى المهاجرين الآسيويين، أو إلى النساء المعنفات، ولا

هم من فئة المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، بل هم أقلية من الناشطين، معظمهم لا ينتمون إلى أي مجموعة «مضطهدة» بل يأتون من طبقات المجتمع المتميزة. إن نهج التصويب والتغيير السياسي له معقل وحصن منيع أيضًا بين أساتذة الجامعات، الذين لديهم عمل مضمون بمرتبات مريحة، وغالبيتهم من الذكور البيض ذوي الميول المغايرة جنسياً، وينتسبون إلى عائلات الطبقة الوسطى أو الطبقة الوسطى الأرستقراطية.

١٣- للعديد من اليساريين اندماج حاد مع مشاكل المجموعات التي تُصور على أنها كائنات مستضعفة (المرأة)، أو مهزومة (الهنود الحمر)، أو بغيضة (المثليون جنسيًا) أو أي من الجماعات المتدنية الأخرى. يشعر اليساريون أن هذه المجموعات أقل شأنًا ومرتبة في المجتمع، ولا يعترفون أن هذه مشاعرهم تجاه أنفسهم، ولذا فهم بالتحديد يرون أن هذه الجماعات أقل شأنًا لأنها عينها مشكلتهم هم. (لا نقصد التقليل من شأن النساء، والهنود الحمر...إلخ، ولكننا نفسر سيكولوجية اليساري).

١٤- تستميت النسويات لإثبات قوة المرأة وقدرتها مثل الرجال. ويتذمرن بوضوح بسبب خوفهن من ألا تكون المرأة فعلًا بقوة وقدرة الرجال.

١٥- ينزع اليساريون إلى كراهية أي شيء يتسم بالقوة والنجاح والمنفعة والقبول. كما يكرهون أميركا والحضارة الغربية والذكور البيض والعقلانية والمنطق. ويبدو أن الأسباب التي تدفع اليساريين

لكراهية الغرب، وما إلى ذلك، لا تتوافق مع دوافعهم الحقيقية: فهم يقولون إنهم يكرهون الغرب لأنه مولع بالحروب، إمبريالي - استعماري، جنسي، عرقي - عنصري، وهكذا دواليك... لكن عندما تظهر هذه الأخطاء والصفات في الدول الاشتراكية أو في الثقافات البدائية، يختلق اليساريون لها الأعذار، أو في أحسن الأحوال، يقرّون على مضض بوجودها في هذه البلدان، في حين أنهم يشيرون إلى هذه الأخطاء في الحضارة الغربية بشكل عشوائي ومتحمس (وفي كثير من الأحيان مبالغ فيه إلى حدٍ كبير). ومن ثم، لا تعد هذه الأخطاء الدافع الحقيقي لليساريين لكره أميركا والغرب، بل يكرهون أميركا والغرب لأنهم أقوياء وناجحون ومهيمنون على مستوى العالم.

١٦- تؤدي كلمات مثل «الثقة بالنفس»، «الاعتماد على الذات»، «المبادرة»، «الإقدام»، و«التفاؤل»... دورًا صغيرًا في قاموس الليبراليين واليساريين. فاليساري يناهض الفردانية ويدعم النزعة الجماعية. ويريد أن يحل المجتمع مشاكل الجميع ويلبي احتياجاتهم ويعتني بهم، لأنه لا يشعر بالثقة في قدرته على حل مشاكله وتلبية احتياجاته الخاصة. ويخاصم اليساري أيضًا مفهوم المنافسة لأنه في أعماقه يشعر بالهزيمة.

١٧- تركز الأشكال الفنية التي تغري المثقفين اليساريين المعاصرين على الخسة والازدراء والهزيمة واليأس، ويتبنون أسلوبًا فاسدًا ومُعَربِدًا يرفض تحكم العقل، كأنما لا أمل في تحقيق شيء من خلال المنطق، فلا يتبقى بعد إلا الانغماس في الأحاسيس الآنية.

١٨- يميل الفلاسفة اليساريون الحداثيون إلى تجاهل العقل والعلم والواقع الموضوعي، وإلى الإصرار على أن كل شيء نسبي ثقافي. يمكن للمرء طرح أسئلة جدية حول أسس المعرفة العلمية وكيف يمكن تعريف مفهوم الواقع الموضوعي، غير أن الفلاسفة اليساريين المعاصرين ليسوا منطقيين، ولا يتبنون الانفعالات الهادئة والتقييم المعتدل والتحليل المنهجي لدى تناولهم لأسس المعرفة.

إنهم متورطون بشدة في هجومهم على الحقيقة والواقع بسبب احتياجاتهم النفسية الخاصة، فهجومهم هو وسيلتهم الناجعة لممارسة العدائية، وبقدر نجاحهم، يرضون حافزهم المحرك لحيازة السلطة. الأهم من ذلك، أنهم يكرهون العلم والعقلانية لأنهم يصنفون معتقدات معينة بالحقيقية (ناجحة، متفوقة... إلخ) وأخرى بالزائفة (فاشلة، متدنية... إلخ). وتتوغل مشاعرهم حول مركب الدونية وعقدة النقص لدرجة أنهم لا يستطيعون احتمال أي تصنيف لوسم بعض الأشياء بالنجاح والتفوق ووسم أشياء أخرى بالفشل والانحطاط. وهذا يؤكد أيضًا سبب رفض العديد منهم لمفهوم المرض العقلي وفائدة اختبارات معدل الذكاء. وهم يعارضون التفسيرات الجينية للقدرات أو السلوك البشري لأن هذه التفسيرات تظهر بعض الأشخاص متفوقين أو أدنى مرتبة من الآخرين. ويفضلون منح المجتمع التقدير أو اللوم على أساس كفاءة الفرد وعدمها. وهكذا، إذا كان الشخص «أدنى» فهو ليس خطأه، بل خطأ المجتمع الذي لم يُنشئه كما ينبغي ويوفر الظروف اللازمة لنجاحه.

١٩- لا تجعل مشاعر الدونية اليساريين متبجحين ومغرورين، أو مستبدين ومروجين لذاتهم، أو منافسين همجيين لا يرحمون. لم يفقد هذا النوع من الأشخاص المستبدين أو المغرورين الثقة بذاتهم تمامًا، لكنهم عاجزون عن الشعور بقوتهم وقيمة ذاتهم، ومازالوا يستطيعون تصور امتلاكهم القدرة على أن يكونوا أقوياء، بيد أن جهودهم في سبيل إظهار قوتهم ينتج عنها سلوك غير مستحب. في المقابل، إن شعور اليساريين بالدونية متجذر بحيث لا يستطيع أحدهم تصور نفسه قويًا وذا قيمة فردية. ولذا، يؤمنون بالجماعية. ولا يشعرون بالقوة إلا عبر انتمائهم إلى منظمة واسعة أو حركة جماهيرية لتحديد هويتهم من خلالها.

٢٠- تجدر الإشارة إلى الميل المازوخي للتكتيكات اليسارية، حيث يمارس اليساريون احتجاجاتهم بالاستلقاء أمام السيارات، مستفزين عمدًا رجال الشرطة أو العنصريين لإيذائهم. قد تكون هذه التكتيكات والأساليب فعالة في كثير من الأحيان، بيد أن العديد من اليساريين لا يستخدمونها كوسيلة لتحقيق غاية ما، بل لأنهم يفضلون أساليب التعذيب المازوخية، ولأن كراهية الذات سمة فيهم.

٢١- قد يزعمون أن نشاطهم يدفعه الإشفاق والعطف على الآخرين أو بتأثير مبادئهم الأخلاقية. ويشكل المبدأ الأخلاقي حافزًا مبالغًا فيه بالنسبة لهم، لكن الرأفة والمبدأ الأخلاقي لا يمكن أن يكونا الدافع الرئيسي للنشاط اليساري. تتضح العدائية باعتبارها

عنصرًا من عناصر السلوك اليساري ودافعه للحصول على السلطة. علاوة على ذلك، فهم لا يتصرفون بعقلانية يستفيد منها من يدعون أنهم يحاولون مساعدتهم. على سبيل المثال: إذا اعتقد المرء بفائدة العمل الداعم للسود، فهل من المنطقي المطالبة باتخاذ إجراءات داعمة في إطار عدائي أو عقائدي متزمت؟ تنتج هذه المطالبات أكثر لدى اتباع نهج دبلوماسي تصالحي يقدم تنازلات شفهية ورمزية للبيض الذين يرون أن العمل الداعم للسود متحيز ضدهم. لكن الناشطين اليساريين لا يتبنون مثل هذا النهج لأنه لا يرضي احتياجاتهم العاطفية، فمساعدة السود ليست هدفهم الحقيقي، إنهم بدلًا عن ذلك يستخدمون المشكلات العنصرية ذريعة للتعبير عن عدائهم وحاجتهم المحبطة للسلطة. وبذلك فهم يؤذون السود لأن موقفهم العدائي تجاه الأغلبية البيضاء يزيد من الكراهية العرقية.

٢٢- لو لم تكن في مجتمعنا مشكلات اجتماعية بالمرة، لاضطرّ اليساريون لاختلاقها كي يوفروا لأنفسهم ذريعة لإثارة ضجة.

٢٣- نشدد على أن كل ما أوردناه سابقًا، لا يعد وصفًا دقيقًا لكل يساري. إنه مجرد مؤشر تقريبي على الاتجاه العام للحركة اليسارية.

الإفراط في التنشئة الاجتماعية

٢٤- يستخدم علماء النفس مصطلح «التنشئة الاجتماعية» للدلالة على عملية تدريب الأطفال على التفكير والعمل باعتبارهما مقتضيات مجتمعية. يُقال إن الشخص اجتماعي على نحو ملائم إذا

كان يؤمن ويذعن للقانون الأخلاقي لمجتمعه، وينسجم كعنصر فعال في المجتمع. قد يبدو من غير المنطقي القول إن اليساريين مفرطون في التنشئة والاندماج الاجتماعي، بما أنهم يعتبرون متمردين. مع ذلك، لا يعد اليساريون متمردين كما يظهر للعيان.

٢٥- إن القانون الأخلاقي لمجتمعنا متطلب جدًا بحيث لا يستطيع أحد التفكير والشعور والتصرف بطريقة أخلاقية كاملة. فمثلًا: لا يفترض بنا أن نكره أحدًا، لكن رغم ذلك يكاد الجميع يكرهون أحدًا ما في وقت ما، سواء اعترفوا بذلك لأنفسهم أم لا. لكن ثمة من هم ملتزمون اجتماعيًا حدّ أن التفكير والشعور والتصرف بأخلاقية يفرض عليهم عبئًا ثقيلًا، ولتجنب شعورهم بالذنب؛ يضللون أنفسهم حول دوافعهم، ويوجدون تفسيرات أخلاقية للمشاعر والأفعال اللا أخلاقية التي يقومون بها. إننا نستخدم مصطلح «المفرط اجتماعيا» لوصف هؤلاء.

٢٦- قد يؤدي الإفراط في «التنشئة الاجتماعية» إلى تدني احترام الذات، الشعور بالضعف والعجز، الانهزامية وتقبل الخسران والخذلان، والشعور بالذنب...إلخ. إن أحد أهم الوسائل التي يلجأ إليها مجتمعنا لإخضاع الأطفال لنظام الجماعة هو تعويدهم على الشعور بالخجل من السلوك أو الحديث المخالف لتوقعات المجتمع. وإذا كان هذا الإخضاع مبالغ فيه، أو إذا كان طفل ما عُرضة لهذه المشاعر بشكل خاص، ينتهي به المطاف إلى الشعور بالخجل من نفسه. بالإضافة إلى ذلك، تتقيد أفكار وسلوك الشخص المفرط

اجتماعيًا بتوقعات المجتمع أكثر من أفكار الشخص ذي الطابع الاجتماعي البسيط.

يشارك معظم الناس في سلوكيات بذيئة وسيئة. يكذبون، يسرقون أشياء زهيدة، يخرقون قوانين السير، يتكاسلون في أداء أعمالهم، يكرهون أحدًا ما، يتلفظون بكلمات مبغضة أو يستعينون بمكيدة خفية للتواصل مع أحد ما. لا يستطيع الشخص المفرط اجتماعيًا ممارسة هذه الأفعال المقيتة، وإذا تجرأ وأقدم عليها، سوف يشعر بالخجل وكراهية الذات. كما لا يستطيع خوض أي تجربة بدون الإحساس بالذنب أو توارد الأفكار والمشاعر المخالفة لمبادئ الأخلاق المقبولة في مجتمعه، ولا يمكنه التفكير بأشياء «قذرة». إن التنشئة الاجتماعية ليست مسألة أخلاقية فحسب؛ بل نغدو اجتماعيين أيضًا لنتوافق مع العديد من معايير السلوك التي لا تندرج تحت عنوان الأخلاق. وهكذا، يبقى الشخص المفرط في سلوكه الاجتماعي موَثَّقًا بمقود سيكولوجي ويقضي حياته راكضًا على سياج حديدي وضعه له مجتمعه، ما يشعره بالقهر والعجز اللذين يضعانه في مصاعب شديدة. إن الإفراط الاجتماعي من بين مظاهر القسوة الأكثر خطورة التي يؤذي بها البشر بعضهم البعض.

٢٧- يؤثر إفراط اليساريين الحداثيين في التنشئة الاجتماعية على تحديد الاتجاه الحديث لليسارية، فاليساريون المغالون اجتماعيًا أميل للانتماء إلى المثقفين أو الطبقة الوسطى الارستقراطية، ويلاحظ أن مثقفي الجامعات يشكلون معظم الفئة الاجتماعية على نحو مبالغ وجناحها الأكثر يسارية.

٢٨- يحاول اليساريون المغالون في التنشئة الاجتماعية الإفلات من السياج السيكولوجي وتأكيد استقلاليتهم بالتمرد. وغالبًا لا يمتلكون القوة اللازمة للتمرد على معظم القيم الأساسية للمجتمع. وعمومًا، لا تتعارض أهدافهم مع أخلاقيات المجتمع المعتمدة. وعلى النقيض من ذلك، يعتنق اليساريون المبادئ الأخلاقية المعتمدة والمسلم بها، باعتبارها مصدر قوتهم، ثم يتهمون المجتمع السائد بانتهاك هذه المبادئ، على سبيل المثال: المساواة العرقية، المساواة بين الجنسين، مساعدة الفقراء، السلام مقابل الحرب، اللاعنف، حرية التعبير، والرفق بالحيوانات. والأهم من ذلك، واجب الفرد تجاه مجتمعه وواجب المجتمع للاعتناء بالفرد.

ومنذ فترة طويلة، كانت هذه القيم متجذرة في مجتمعنا، أو على الأقل في طبقاته الوسطى والعليا. وتعبر وسائل الاتصال الرئيسية والنظام التعليمي عن هذه القيم بشكل صريح أو ضمني أو افتراضي في معظم المواد المقدمة إلينا. لا يتمرد اليساريون عادةً، لاسيما أولئك الذين ينتمون إلى النوع المفرط اجتماعيًا، ضد هذه المبادئ، ويبررون عداءهم (بدرجة معينة من الحقيقة) من خلال الادعاء بأن المجتمع لا يلتزم بهذه المبادئ ويحافظ عليها.

٢٩- يرتبط اليساريون المفرطون في التنشئة الاجتماعية بالمواقف التقليدية لمجتمعنا، في الوقت الذي يتظاهرون فيه بأنهم متمردون ضدها. ويساهم العديد منهم في العمل الإيجابي، وتحفيز المجتمع لتوظيف السود في مهن ذات مكانة رفيعة، فضلًا عن تطوير مستوى

التعليم في مدارس السود وبذل المزيد من المال لمثل هذه المدارس؛ حيث يعتبرون حياة «الطبقة الدنيا» السوداء عارًا اجتماعيًا. يتطلعون أيضًا إلى دمج السود في النظام، واضطلاعهم بمسؤوليات تنفيذية في مجال الأعمال والمحاماة والعلوم مثلما هو الحال في الطبقة البيضاء المتوسطة والعليا. وآخر ما يريدونه هو جعل الرجل الأسود نسخة من الرجل الأبيض، لأنهم يرغبون في الحفاظ على الثقافة الأميركية الأفريقية.

لكن مم تتكون هذه الثقافة التي يتمسكون بها؟ إنها لا تشمل سوى تناول طعام السود، الاستماع إلى الموسيقى الخاصة بالسود، ارتداء الملابس على طراز السود، والذهاب إلى كنيسة أو مسجد على نمط السود. بعبارة أخرى، تقتصر هويتها على المسائل السطحية. في مختلف النواحي الأساسية، يطمح معظم هؤلاء إلى جعل الرجل الأسود متوافقًا مع الأبيض في مبادئ ومثل الطبقة الوسطى، وتدريس السود موضوعات تقنية، ليصبحوا مسؤولين تنفيذيين أو علماء، ويقضون حياتهم في ارتقاء السلم الاجتماعي لإثبات كفاءة السود وقدراتهم المهنية مثل البيض. يريدون أن يكون الآباء السود «مسؤولين»، وأن تصبح عصابات السود لاعنفية... إلخ. لكن هذه هي بالضبط قيم النظام الصناعي - التكنولوجي الذي لا يهتم بنوع الموسيقى التي يستمع إليها الرجل، نوع الملابس التي يرتديها، أو ما هو الدين الذي يعتنقه، طالما أنه يدرس في مدرسة، لديه وظيفة محترمة، يرتقي وضعه الاجتماعي تدريجيًا، أب مسؤول، غير عنيف، وهكذا دواليك. ورغم إنكارهم، يريد اليساريون المفرطون اجتماعيًا دمج السود في النظام وتبني قيمه.

٣٠- لا ندعي بشكل قاطع أن اليساريين، حتى أولئك من النوع المفرط، لا يتمردون ضد القيم الأساسية لمجتمعنا. وإنما يفعلونها في بعض الأحيان. بل يصل الأمر ببعض اليساريين المبالغين إلى حد التمرد ضد أهم مبادئ المجتمع الحديث عبر العنف الجسدي. ومن وجهة نظرهم، فإن العنف هو شكل من أشكال «التحرر». لكن بكلمات أخرى، إنهم يكسرون القيود النفسية التي دُرّبوا عليها من خلال ارتكاب العنف، ولأنهم مبالغون في الالتزام بالتنشئة الاجتماعية، فإن هذه القيود تقيدهم أكثر من بقية أفراد المجتمع، ولذا فهم يحتاجون للتخلص منها، لكنهم يبررون تمردهم هذا من خلال ذات القيم السائدة، فإذا ما شاركوا في العنف فإنهم يدعون أنهم يقاتلون ضد العنصرية أو ما شابه ذلك.

٣١- ندرك أن العديد من الاعتراضات قد تثار ضد الصورة المصغرة المذكورة أعلاه عن سيكولوجية اليساريين ودوافعهم. وأعلم أن الوضع الحقيقي معقد، وأن الحديث عن تفاصيل أوضاعهم ومعتقداتهم يتطلب تأليف مجلدات حتى مع توافر البيانات الضرورية. لكن مادتنا البحثية ألمحت إلى اثنين من أهم الاتجاهات في نفسية الحركة اليسارية الحديثة.

٣٢- تدل مشاكل اليساريين على مشاكل مجتمعنا بأسره، حيث لا يقتصر انخفاض احترام الذات والميول الاكتئابية والانهزامية على اليساريين. وعلى الرغم من أنها سمات ملحوظة بين اليساريين، فهي منتشرة بين كافة أطياف المجتمع. ويحاول مجتمع اليوم إضفاء الصفة الاجتماعية علينا أكثر من أي مجتمع سابق، إلى درجة أن الخبراء

يخبروننا كيف نأكل، كيف نمارس الرياضة، كيفية نمارس الحب، وكيف نربي أطفالنا...إلخ.

عملية السلطة

٣٣- يفتقر البشر (استنادًا إلى علم البيولوجيا) إلى ما نسميه بـ«عملية السلطة» التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحاجة إلى القوة (وهو أمر معترف به على نطاق واسع)، بمستويات متفاوتة. تحتوي عملية السلطة أربعة عناصر: الهدف والجهد وتحقيق الهدف التي تعد العناصر الأكثر وضوحًا. (يحتاج كل منا إلى تحديد أهدافه التي يتطلب تحقيقها إلى بذل الجهد، ويحتاج إلى النجاح في تحقيق بعض أهدافه). أما العنصر الرابع فهو الأكثر صعوبة لتحديد ماهيته وقد لا يكون ضروريًا للجميع، نسميه: الحكم الذاتي أو الاستقلالية وسنناقشه لاحقًا. (انظر الفقرات ٤٢-٤٤).

٣٤- لنفترض شخصًا قادرًا على امتلاك ما يريد حين يرغب، هذا الشخص امتلك السلطة، لكنه سيصاب بمشاكل نفسية خطيرة، سيحظى أولًا بكثير من وسائل المرح والمتعة، لكنه سيشعر تاليًا بالملل الشديد والإحباط، وسيصل أخيرًا إلى مرحلة الاكتئاب السريري. يثبت التاريخ أن الأرستقراطيات المترفة والمتنعمة تميل في أوقات الفراغ إلى الانحطاط والفساد الأخلاقي. ولا ينطبق ذلك على الأرستقراطيات التي تضطر إلى النضال للحفاظ على قوتها ومركزها الاجتماعي. لكن الأرستقراطيات المطمئنة والمترفة، التي لا تحتاج إلى بذل الجهد للحفاظ على منزلتها الرفيعة، عادةً ما تصاب بالملل،

وتنغمس في الملذات، وتفسد أخلاقها، رغم أنها تمتلك السلطة والقوة، مما يدل على أن السلطة ليست كافية للعيش بأمان. يجب على المرء أن يكون لديه أهداف ويمارس سلطته من خلالها.

٣٥- لكل فرد أهداف يسعى لتحقيقها، إن لم يكن أمرًا آخر، فعلى الأقل الحصول على ضرورات الحياة المادية، كالطعام والماء والملابس والمأوى الذي يقيه تقلبات المناخ. لكن الأرستقراطي المترف يحصل على هذه الأشياء دون جهد، ومن هنا يأتي الضجر والانهيار الأخلاقي.

٣٦- يؤدي الفشل في تحقيق الأهداف المادية الضرورية إلى الموت، والفشل في تحقيق الأهداف الأخرى غير المتعلقة بضرورات البقاء على قيد الحياة يؤدي إلى الإحباط. كذلك فالفشل المتواصل في تحقيق الأهداف يؤدي إلى الانهزامية، وتدني احترام الذات أو الاكتئاب.

٣٧- ومن ثم، يحتاج الإنسان إلى تحديد أهداف يتطلب تحقيقها جهدًا، ويجب أن يحوز معدل نجاح معقول في سبيل تحقيق أهدافه لتفادي المشاكل السيكولوجية.

الأنشطة البديلة

٣٨- لا يصاب كل أرستقراطي مُترف ومطمئن إلى توافر ضرورات الحياة بالملل والضجر وفساد الأخلاق. على سبيل المثال: كَرَّسَ الإمبراطور هيروهيتو وقته لعلم الكائنات البحرية الذي تميز

به، بدلًا من الغرق في مذهب المتعة المُنْحَلّ. وغالبًا ما يصنع الأثرياء، الذين لا يبذلون أي جهد لإشباع احتياجاتهم الجسدية (من توفير الطعام والماء والملبس والمأوى)، أهدافًا محددة لأنفسهم. وفي كثير من الحالات، يقتفون أثر هذه الأهداف ويسعون إلى تحقيقها بالطاقة والمشاركة العاطفية ذاتها التي كانوا سيبذلونها في سبيل البحث عن الضرورات المادية.

وهكذا، كان للأرستقراطيين في الإمبراطورية الرومانية حُججهم وطموحاتهم الأدبية. وقبل بضعة قرون، استثمر العديد من الأرستقراطيين الأوروبيين أوقاتهم وطاقتهم لممارسة هواية القَنْص، على الرغم من أنهم بالتأكيد لم يحتاجوا إلى لحوم الحيوانات كمصدر للغذاء أو كمورد رِزْق، في حين تنافس أرستقراطيون آخرون على المناصب والأوضاع التي يضاعفون بها ثرواتهم؛ وغاصت فئة قليلة منهم في بحر العلم، مثل هيروهيتو.

٣٩- نستخدم مصطلح «النشاط البديل» للدلالة على النشاط الموجه نحو الهدف الاصطناعي الذي حدده أفراد لأنفسهم من أجل أن يكون لديهم هدف ما من العمل، أو للوصول إلى غاياتهم التي يحصلون عليها نتيجة لمتابعة طموحاتهم. ثمة قاعدة أساسية لتحديد الأنشطة البديلة. وبتأمل الشخص الذي يخصص الكثير من وقته وطاقته لمتابعة الهدف X، اسأل نفسك السؤال التالي: إذا كان عليه تكريس معظم وقته وطاقته لتلبية احتياجاته البيولوجية، وإذا اقتضى منه ذلك الجهد استخدام قدراته الجسدية والعقلية، بطريقة مختلفة ومثيرة للاهتمام، فهل سيشعر حقًا بالحرمان الشديد

والفقد إذا لم يحقق الهدف X؟ إذا كانت الإجابة «لا»، فإن سعي الفرد لبلوغ الهدف X هو نشاط بديل. لذا، شكلت دراسات هيروهيتو في البيولوجيا البحرية نشاطًا بديلًا، لأنه لو اضطر لقضاء وقته في مهام أخرى غير علمية وشائقة من أجل الحصول على ضروريات الحياة، لما شعر بالحرمان لأنه لم يكن متعمقًا بعلم التشريح ودورات حياة الحيوانات البحرية. من ناحية أخرى، لا يعد البحث عن الجنس والحب، على سبيل المثال، نشاطًا بديلًا، لأن معظم الناس يشعرون بالحرمان إذا قضوا حياتهم بدون الارتباط بالجنس الآخر، حتى إذا كانت حياتهم ملائمة ومُرضية بطريقة ما، (لكن ممارسة الجنس بإفراط عبر إقامة علاقات متعددة قد يكون نشاطًا بديلًا).

٤٠- في المجتمع الصناعي الحديث، لا يلزم المرء سوى بذل الحد الأدنى من الجهد لتلبية احتياجاته البدنية، حيث يكفيه اجتياز برنامج تدريبي لاكتساب بعض المهارات الفنية البسيطة، ثم يأتي إلى العمل في الوقت المحدد ويبذل الجهد المتواضع اللازم لتأدية وظيفة ما. لا تتطلب منه الوظيفة سوى مستوى متوسط من الذكاء، والأهم من ذلك، الطاعة والانقيادية التامة. وإذا اتسم المرء بهاتين الخَصْلتين، يعتني به المجتمع من المهد إلى اللحد، (ثمة فئة من الطبقة الدنيا التي لا تأخذ الضرورات المادية كأمر مسلم به، بيد أننا نتحدث عن الاتجاه السائد في المجتمع). ومن ثم، ليس من المستغرب أن يعجّ المجتمع الحديث بالأنشطة البديلة التي تشمل: المهام العلمية، الإنجازات الرياضية، العمل الإنساني، الإبداع الفني والأدبي، ارتقاء السلم الوظيفي في الشركات ومشاركة الأعمال،

الحصول على المال والبضائع المادية إلى مستوى أعلى يتجاوز إشباع المتطلبات البدنية، والنشاط الاجتماعي الذي يعالج القضايا غير المهمة للناشط على المستوى الشخصي أو التي لا تؤثر على حياته بشكل مباشر، كما هو الحال بالنسبة للناشطين البيض العاملين في مجال حقوق الأقليات والأعراق الأخرى من غير البيض.

لا تندرج هذه الأعمال دائمًا ضمن الأنشطة البديلة البحتة، لأن الدافع بالنسبة للكثير من الناس قد يتصل جزئيًا باحتياجات أخرى غير الحاجة إلى تحقيق هدف ما. قد يكون الحافز الجزئي للقيام بأبحاث علمية هو الحصول على المَهَابَة والمكانة الاجتماعية الرفيعة، الحافز الجزئي للإبداع الفني هو الحاجة إلى التعبير عن المشاعر، والدافع وراء النشاط الاجتماعي القتالي هو عدائية الإنسان. ويواصل معظم الناس ممارستها باعتبارها أنشطة بديلة، على سبيل المثال: قد يوافق غالبية العلماء على أن إنجازهم العلمي أكثر أهمية من المال والمنزلة الرفيعة المُسْتَحَقّة.

٤١- بالنسبة للكثيرين إن لم يكن معظم الناس، تعتبر الأنشطة البديلة أقل إرضاءً من السعي لتحقيق أهداف حقيقية (أي الأهداف التي يرغب الإنسان بتحقيقها حتى إذا لبّى مسبقًا حاجته إلى عملية السلطة)، وأحد المؤشرات على ذلك عدم اقتناع وارتياح معظم الأشخاص المشاركين بعمق في الأنشطة البديلة. وبالتالي، يكافح صانع المال باستمرار لمضاعفة ثروته. بينما يحاول العالم الاختصاصي حل مشكلة معينة بأسرع وقت للانتقال إلى المرحلة التالية. ويثابر عَدّاء المسافات الطويلة للجري دائمًا بشكل أسرع وأبعد. يقول العديد من

الأشخاص، الذين يسعون وراء أنشطة بديلة، إنهم يحققون أهدافهم من هذه الأنشطة أكثر مما يحققونها من الأعمال «الدنيوية» لتلبية احتياجاتهم البيولوجية، بيد أن ذلك يرجع إلى انخفاض الجهد اللازم لإشباع الاحتياجات البيولوجية في المجتمع إلى حد البساطة. والأهم من ذلك، لا يستجيب مجتمعنا إلى احتياجات أفراده البيولوجية بشكل ذاتي مستقل، بل من خلال العمل كعناصر تكوينية في آلة اجتماعية ضخمة. وعلى النقيض، يحظى الناس عمومًا بقدر كبير من الاستقلالية في متابعة أنشطتهم البديلة.

الحكم الذاتي (الاستقلالية)

٤٢- لا يعتبر الاستقلال كجزء من عملية السلطة ضروريًا لكل فرد. لكن معظم الناس يحتاجون إلى درجة (تزيد أو تقصر) من الاستقلالية في العمل على أهدافهم، حيث يوّدون أن يبذلوا الجهد بمبادرة منهم وتحت توجيههم وسيطرتهم. مع ذلك، فليس ضروريًا لمعظم الناس تقديم المبادرات وإحكام السيطرة كأفراد، بل يكفيهم الانضمام لمجموعة صغيرة والعمل في دائرتها، فإذا ناقش ستة أشخاص هدفًا ما بينهم، وبذلوا جهودهم لتحقيقه، فستلبى احتياجاتهم لعملية السلطة. لكنهم إن عملوا بإشراف سلطة عليا تقتضي تنفيذ أوامر صارمة ومتزمتة، فلن يتسنى لهم اتخاذ قرارات حرة وتنفيذ مبادرات مستقلة، ولن تلبّى ساعتها حاجتهم لعملية السلطة. وينطبق الأمر ذاته حين تتخذ قرارات على أساس جماعي يتلاشى معه دور وأهمية الفرد، خصوصًا إن كان عدد المجموعة كبيرًا.

٤٣- بعض الأفراد لا يحتاجون إلى الاستقلالية، إما لضعف دافعهم إلى السلطة أو لاقتناعهم واكتفائهم بتحديد هويتهم عبر الانتماء إلى منظمات متنفذة وواسعة الانتشار. ومن ثم، هناك من يعيشون بطريقة همجية وبهيمية وبلا تفكير، وراضين عن المعنى المادي المحض للسلطة، على سبيل المثال: اقتناع الجندي المقاتل، الذي يشعر بالقوة من خلال تطوير مهاراته القتالية، باستخدام قوته في الطاعة العمياء لرؤسائه.

٤٤- خلال عملية السلطة، يحقق معظم الناس لدى بذلهم لجهد مستقل وتحقيق أهدافهم احترام الذات، والثقة بالنفس، والشعور بالقوة. لكن حين لا تتاح للفرد فرصة خوض عملية السلطة، فإن العواقب تتضمن طبقًا للفرد وطريقة عرقلة عملية السلطة: الضجر والتَبَرّم، فساد الأخلاق، تدني احترام الذات، مشاعر الدونية، الانهزامية، الابتئاس، الجزع، الشعور بالذنب، الإحباط، العدوانية، إساءة معاملة الأطفال والزوجة (أو الزوج)، الانغماس في الملذات واعتناق مذهب المتعة، السلوك الجنسي المنحرف، اضطرابات النوم واضطرابات تناول الطعام...إلخ.

مصادر المشاكل الاجتماعية

٤٥- قد تظهر أي من الأعراض السابقة في أي مجتمع، غير أنها تنتشر في المجتمع الصناعي الحديث على نطاق واسع. لم نكن أول من ألمح إلى أن المجتمعات البشرية المعاصرة تبدو مصابة بالعَتَه، مما يجعل الأمور تسير في اتجاه غير طبيعي. يوجد سبب مقبول للاعتقاد

أن الإنسان البدائي عانى من توترات وإحباطات أقل، وكان راضيًا بشكل أفضل عن أسلوب حياته أكثر من الإنسان المعاصر. لا يعني ذلك أن المجتمعات البدائية اتسمت برُقِيّ التعامل واللطف والاستنارة في مختلف المجالات، على سبيل المثال: كان انتهاك حقوق النساء شائعًا بين السكان الأصليين الأستراليين، وكان اشتهاء تغيير الجنس شائعًا إلى حدٍ ما بين بعض القبائل الهندية - الأميركية. بيد أن المشاكل التي أدرجناها في الفقرة السابقة كانت أقل شيوعًا بين الشعوب البدائية مقارنةً بالشعوب المتقدمة الآنية.

٤٦- تُعزى المشاكل الاجتماعية والسيكولوجية المعاصرة إلى متطلبات مجتمعات الحداثة التي تفرض على الشعوب ظروفًا مختلفة جذريًا عن ظروف تطور الأعراق البشرية، واتباع طرق مخالفة لأنماط السلوك البشري التي طورها الإنسان البدائي. ووفقًا لما أوردناه آنفًا، نضيف سببًا آخر، وهو عدم إتاحة الفرصة لتجربة عملية السلطة بشكل صحيح ولائق باعتبارها من أهم الظروف غير الطبيعية التي يختبرها سكان المجتمع الحديث. وقبل التعامل مع تعطيل عملية السلطة كمصدر للمشاكل الاجتماعية سنناقش بعض المصادر الأخرى.

٤٧- من الظروف غير الطبيعية الراهنة في المجتمع الصناعي الحديث: كثافة السكان المفرطة، عزل الإنسان عن الطبيعة، السرعة المتهورة لتغيير المجتمع، وانهيار التجمعات الصغيرة مثل الأسرة الممتدة عبر أجيال، القرية، والقبيلة.

٤٨- من المعلوم أن الازدحام يزيد من التوتر والعدوانية. لذا؛ تعد درجة الازدحام في أي مجتمع وعزل الإنسان عن الطبيعة من نتائج التقدم التكنولوجي. غالبًا ما كانت مجتمعات ما قبل الصناعة ريفية. وأدت الثورة الصناعية إلى اتساع مساحة المدن وعدد سكانها، كما أتاحت التقنية الزراعية الحديثة دعم الأراضي الخصبة وكثافة السكان أكثر أي وقتٍ مضى. فاقمت التقنية أيضًا من آثار الازدحام الذي يضاعف قوى التخريب المتاحة للسكان، على سبيل التوضيح: تنوع وسائل صنع الضوضاء من آلات حصادة العشب، المذياع، الدراجات النارية، وما إلى ذلك. وإذا لم يتقيد استخدام هذه الأجهزة، يُحبط الأفراد الذين يحبذون السلام والهدوء بسبب التلوث الضوضائي. بينما إذا تقيد استخدامها، سوف يُحبط مستخدميها من اللوائح والقواعد العامة، لكن إذا لم تبتكر أجهزة ووسائل التقدم، فلن يكون هناك نزاع أو إحباط ناتج عنها.

٤٩- في المجتمعات البدائية، يوفر العالم الطبيعي (الذي يتغير عادةً ببطء)، إطارًا ثابتًا وشعورًا بالأمان، في حين أن العالم الحديث، الذي يهيمن فيه المجتمع البشري على الطبيعة، فإن المجتمع الحديث يتغير بسرعة كبيرة بسبب التغير التقني، وبالتالي؛ ينعدم الإطار المعيشي الثابت.

٥٠- إن المحافظين التقليديين حمقى ومغفلين، لأنهم ينتحبون دائمًا من تدهور القيم التقليدية واضمحلالها، ويدعمون في ذات الوقت وبحماس التقدم التقني والنمو الاقتصادي. إنهم لا يدركون

أنه لا يمكنك إجراء تغييرات سريعة وجذرية في تقنية واقتصاد أي مجتمع دون إحداث تغييرات سريعة أيضًا في جوانب المجتمع الأخرى، وأن مثل هذه التغييرات السريعة ستقضي حتمًا على القيم التقليدية.

٥١- ينطوي انهيار القيم التقليدية على تفكك عُرَى المجموعات الاجتماعية الصغيرة التقليدية. كما وتعزز الظروف الحديثة التي تستوجب أو تجذب غالبًا الأفراد للانتقال إلى أماكن جديدة هذا التفكك، وتفصلهم عن مجتمعاتهم الأولية. بالإضافة إلى ذلك، فالمجتمع التقني يوجب إضعاف الروابط في الأسرة والتجمعات المحلية الأخرى حينما تؤدي دورها بكفاءة وفاعلية. وفي المجتمع الحديث أيضًا، فإن موالاة الفرد يجب أن تكون أولًا للنظام، ومن ثم للتجمع الصغير مثل الأسرة والقبيلة، لأنه إذا كانت الولاءات الداخلية أقوى من الموالاة للنظام، ستفضل هذه التجمعات مصلحتها الخاصة على حساب النظام.

٥٢- لنفترض أن مسؤولًا عامًا أو مديرًا تنفيذيًا وظف ابن عمه أو صديقه أو المعتنق لدينه في منصب ما بدلًا من تعيين الشخص الأفضل المؤهل للوظيفة. في هذه الحالة، قدم الموالاة الشخصية على موالاة النظام، وساعد في انتشار المحسوبية ومحاباة الأقارب والتعصب، التي تعد من خطايا المجتمع الحديث الفظيعة. تتسم المجتمعات الصناعية التي لا تحارب الولاءات الشخصية أو المحلية وتضعف من موالاة النظام باللافعالية والعجز كما هو الحال في

أميركا اللاتينية. نتيجة لذلك، لا يتغاضى المجتمع الصناعي المتقدم إلا عن التجمعات محدودة النطاق التي يتم استئصالها أو ترويضها ودمجها في أدوات النظام.

٥٣- يُعترف وعلى نطاق واسع بأن الازدحام والتغير السريع وتفكك المجتمعات المحلية من منابع المشاكل الاجتماعية، بيد أن ذلك لا يكفي لتفسير عمق المشاكل الحديثة.

٥٤- قليل من مدن ما قبل الثورة صناعية كانت كبيرة جدًا ومزدحمة، لكن سكانها لم يعانوا من المشاكل النفسية بقدر معاناة الإنسان الحديث. في الولايات المتحدة الأميركية، ثمة مناطق ريفية غير مزدحمة، تنتشر فيها ذات مشاكل المناطق الحضرية، وبالرغم من أنها أقل حدّة، لكن هذا يدل على وجود عوامل حاسمة ومؤثرة أخرى بالإضافة إلى عامل الازدحام.

٥٥- أثناء تنامي الحدود الأميركية في القرن التاسع عشر، من المحتمل أن انتقال السكان إلى أماكن جديدة أدى إلى انهيار العائلات الممتدة عبر أجيال عدة وتقسيم المجموعات الاجتماعية الصغيرة كما هو عليه الحال اليوم. في الواقع، تعيش العديد من الأسر النووية (أي المكونة من أم وأب وأبناء بدون أجداد وأحفاد) في عزلة اختيارية، حيث لا يوجد جيران على بعد عدة أميال من مسكنهم، ولا تنتمي لأي تجمع على الإطلاق، ومع ذلك، لا تظهر عليهم مشاكل العزلة.

٥٦- علاوة على ذلك، كان التغيير في التجمعات الحدودية

الأميركية سريعًا وجذريًا، حيث يولد المرء وينشأ في حجرة مشيدة من جذوع الأشجار، خارج نطاق تطبيق القانون والنظام العام ويتغذى بشكل رئيسي على لحوم الحيوانات البرية. وعندما يصل إلى سن الشيخوخة، قد يكون عاملًا في مهنة اعتيادية ويعيش في مجتمع محكم التنظيم ومنسجم مع إنفاذ القانون الفعال. كان هذا التغيير أعمق من التغيرات الطارئة في حياة الإنسان المعاصر، ولا يتبين أنه نتج عنه مشاكل سيكولوجية. لقد كانت نبرة المجتمع الأميركي في القرن التاسع عشر متفائلة وواثقة، وتختلف تمامًا عن نبرة مجتمع اليوم.

٥٧- نعتقد أن الاختلاف يكمن في أن الإنسان المعاصر يشعر بأن التغيير مفروض عليه (تبرير مقبول إلى درجة معينة)، في حين أن الأميركي المقيم في المناطق الحدودية في القرن التاسع عشر، يشعر بأنه أوجد التغيير (تبرير مستحسن)، عبر اختياراته، حيث استقر السكان الأوائل في منطقة ما واختاروا قطعة أرض وحولوها إلى مزرعة بجهودهم الخاصة. في تلك الأيام، وصل عدد المقيمين في ولاية أميركية بأسرها إلى بضع مئات فقط، وكانت أكثر عزلة واستقلالية من أي ولاية حديثة. شارك المزارعون الأوائل في تأسيس مجتمع جديد ومُنَظّم كأعضاء ينتمون إلى مجموعة صغيرة نسبيًا. وقد يتساءل المرء فيما إذا كان إنشاء هذا المجتمع يمثل تغييرًا نحو الأفضل، لكنه على أي حال، استوفى حاجة الرُوّاد الماسة إلى عملية السلطة.

٥٨- نستطيع إعطاء أمثلة أخرى عن المجتمعات التي واجهت تغيرات سريعة و/ أو افتقار إلى الروابط المجتمعية الوثيقة دون أن

تتعرض للانحراف السلوكي الهائل الذي يشهده المجتمع الصناعي الحالي. ونعتقد أن أهم أسباب المشاكل الاجتماعية والسيكولوجية في المجتمع الحديث تتمحور حول عدم إتاحة الفرصة لأفراده لممارسة عملية السلطة بنهج سَوِيّ. لا يعني ذلك أن المجتمع الحديث واجه تعطيل عملية السلطة دون غيره، بل تعرقلت عملية السلطة في معظم، إن لم يكن، كل المجتمعات المتمدنة إلى مدى معين. بيد أن المجتمع الصناعي الحديث اتسمت المشكلة فيه بالحدة والعنف. ومن منتصف إلى أواخر القرن العشرين، شكلت الحركة اليسارية جزءًا من أعراض وإرهاصات نَزْع عملية السلطة.

عرقلة عملية السلطة في المجتمع الحديث

٥٩- نقسم دوافع الإنسان إلى ثلاث مجموعات: (١) الدوافع التي يمكن إرضاؤها بأقل جهد ممكن؛ (٢) الدوافع التي يمكن إرضاؤها بعد بذل جهود جبارة متقنة؛ و(٣) الدوافع التي لا يمكن إرضاؤها بغض النظر عن مقدار الجهد الذي يبذله المرء. تعتبر عملية السلطة تلبية لدوافع المجموعة الثانية. وكلما زادت دوافع المجموعة الثالثة، زاد الإحباط والغضب، إلى أن يصل إلى مستوى الانهزامية والابتئاس... إلخ.

٦٠ -في المجتمع الصناعي الحديث، تميل الدوافع البشرية الطبيعية إلى المجموعتين الأولى والثالثة، بينما تتجه المجموعة الثانية إلى أن تتكون تدريجيًا من الدوافع الاصطناعية.

٦١- في المجتمعات البدائية، تندرج الضرورات الفيزيائية ضمن المجموعة الثانية، التي يمكن الحصول عليها بناءً على الجهد المتقن. ويضمن المجتمع الحديث الضرورات المادية للجميع مقابل بذل الحد الأدنى من الجهد، ولذا، تتحول الاحتياجات الجسدية إلى المجموعة الأولى. قد يكون ثمة خلاف فيما إذا كان الجهد اللازم للاحتفاظ بوظيفة ما هو «الحد الأدنى»، ولا تقتضي الوظائف في المستوى الأدنى والمتوسط، أيًا كان الجهد المطلوب، سوى طاعة المسؤولين. تجلس أو تقف في المكان الذي يُطلب منك أن تجلس أو تقف فيه وتنفذ الأوامر بالطريقة التي يُطلب منك القيام بها. ونادرًا ما تضطر إلى تناول الأمور بجدية، وعلى أي حال، لا يكاد يكون لديك أي استقلالية في العمل، ولا يستجاب لحاجتك إلى عملية السلطة كما ينبغي.

٦٢- غالبًا ما تصنف الاحتياجات الاجتماعية، مثل الحب والجنس والمكانة، في المجتمع الحديث ضمن المجموعة الثانية، اعتمادًا على حالة الفرد. ويعتبر الجهد المطلوب لتحقيق الدافع الاجتماعي ضئيلًا لاستيفاء عملية السلطة، باستثناء الأشخاص الذين لديهم دافع قوي لنَّيْل المنزلة الرفيعة.

٦٣- أنشئت احتياجات اصطناعية معينة ضمن المجموعة الثانية، وتلبي الحاجة إلى عملية السلطة. كما تطورت تقنيات الدعاية والتسويق التي تجعل الناس يشعرون بأنهم بحاجة إلى أشياء لم يرغب بها أجدادهم أو حتى يتمنوها. وتتطلب جهدًا رصينًا لاستحقاق ما

يكفي من المال اللازم لجلب هذه الاحتياجات الاصطناعية، المصنفة في المجموعة الثانية، (انظر الفقرات ٨٠-٨٢). ونتيجة لذلك، استوجب على إنسان الحداثة السعي وراء الاحتياجات الاصطناعية الناجمة عن صناعة الإعلان والتسويق والأنشطة البديلة، لتلبية حاجته إلى عملية السلطة.

٦٤ - قد تبدو الأشكال الاصطناعية لعملية السلطة غير كافية لدى معظم الناس. وفي النصف الثاني من القرن العشرين، كان الموضوع المتكرر في كتابات النقاد الاجتماعيين هو الإحساس بالعشوائية المُداهِمة في المجتمع الحديث، التي تسمى غالبًا بمسميات أخرى مثل «العَدَم» أو «خَوَاء الطبقة الوسطى (البرجوازية)». أعتبر مفهوم «أزمة الهوية» بحثًا عن غاية معينة أو الالتزام بنشاط بديل. قد يكون مذهب الوجودية في جزء كبير منه ردًا على عشوائية الحياة الحديثة، والذائع على نطاق واسع في المجتمع الحديث هو البحث عن تحقيق الذات والالتزام. بيد أنني أعتقد أن النشاط الذي تتمثل غايته الرئيسية في الإنجاز هو نشاط بديل ولا ينتج عنه الرضا التام لدى غالبية الناس. بعبارة أخرى، لا يلبي تمامًا الحاجة إلى عملية السلطة، (انظر الفقرة رقم ٤١).

يمكن استيفاء هذه الحاجة بالكامل من خلال أنشطة ذات أهداف خارجية، مثل الضرورات المادية، الحب، الجنس، المكانة الاجتماعية، والانتقام.

٦٥- بالإضافة إلى ذلك، معظم الناس ليسوا في وضع يمكنهم

من مواصلة أهدافهم بشكل مستقل، حيث السعي إلى تحقيق الأهداف يتم من خلال اكتساب المال، ارتقاء السلم الوظيفي، والعمل كجزء من النظام بطريقة ما. وكما أوردنا في الفقرة رقم ٦١، يعد معظم العمال موظفين لدى أحد ما، ويقضون أيامهم في عمل ما يطلب منهم بالطريقة المحددة من رؤسائهم، حتى العاملين في مجال التجارة لصالحهم وتحت إشرافهم لديهم استقلالية محدودة. إنها شكوى مزمنة من رُوَّاد الأعمال وأصحاب المشاريع الصغيرة الذين يقيدهم التنظيم الحكومي المتطرف، لأن بعض اللوائح التنظيمية والقوانين غير مفيدة، غير أن معظم القوانين الحكومية تعتبر عناصر أساسية وحتمية في المجتمع شديد التعقيد. ويستند جزء لا بأس به من المشاريع الصغيرة إلى نظام الامتياز أو الحق الاستثنائي الذي تمنحه الحكومة لشخص أو شركة. ذكرت صحيفة «وول ستريت» قبل بضع سنوات أن الشركات المانحة لحق الامتياز تفرض على المتقدمين اجتياز اختبار الشخصية المصمم لإقصاء المبدعين والمبادرين، لأنهم لا يقبلون الإذعان لنظام الامتياز، مما يؤدي إلى استبعاد العديد من الأشخاص الذين هم في أمس الحاجة إلى الاستقلالية من المشاريع الصغيرة.

٦٦- ارتفع متوسط أعمار البشر بفضل ما يقوم به النظام تجاههم أو ما يفعلونه لأنفسهم مثل تغيير النظام الغذائي وممارسة الرياضة. وما يقدمونه لأنفسهم يتوافق مع مسارات النظام المنصوص عليها. غالبًا ما يحدد النظام الفرص المتاحة للناس، وينبغي استثمار الفرص وفقًا للقواعد واللوائح التنظيمية، واتباع التقنيات التي يحددها الخبراء فيما إذا وجدت إمكانية للنجاح.

٦٧- تتعطل عملية السلطة في مجتمعنا من خلال نقص الأهداف الحقيقية، ونقص الحكم الذاتي في متابعة الأهداف. تتعطل أيضًا بسبب الدوافع البشرية في المجموعة الثالثة: أي التي لا يمكن الاستجابة لها بغض النظر عن مقدار الجهد، مثل دافع الحاجة إلى الأمن. تعتمد حياتنا على القرارات التي يتخذها أشخاص آخرون؛ نحن لا نسيطر على هذه القرارات، ولا نعرف من هم صناعها. ووفقًا لرأي فيليب ب. هايمان من كلية هارفارد للحقوق، المقتبس من أنطوني لويس في عدد صحيفة نيويورك تايمز الصادر بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٩٥: «نعيش في عالم يتخذ فيه القرارات المهمة عدد محدود من صنّاع القرار، يتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠٠ شخص». كما تعتمد حياتنا على مدى اتباع العاملين في محطات الطاقة النووية لمعايير السلامة، كمية مبيدات الآفات المسموح بنفاذها إلى طعامنا، كمية تلوث الهواء، مدى مهارة الأطباء أو عدم كفاءتهم؛ ويعتمد حصولنا على وظيفة أو فقدانها على قرارات الاقتصاديين الحكوميين أو مدراء الشركات التنفيذيين؛ وهكذا. لا يستطيع معظم الأفراد حماية أنفسهم من هذه التهديدات إلا في نطاق محدود. وبالتالي، يصاب الفرد الباحث عن الأمان بخيبة أمل، مما يؤدي إلى الشعور بالعجز والضعف.

٦٨- يمكن الاعتراض بالقول إن الأمن الجسدي للإنسان البدائي كان أقل منه لدى الإنسان المعاصر، كما يبين ذلك متوسط عمره المتوقع الذي هو أقصر. وإذن فمعاناة الإنسان المعاصر لابد أن تكون أقل، ولا يمكن أن يتخطى مقدار انعدام الأمن لديه ذلك

المقدار الطبيعي للبشر، لكن الأمن النفسي لا يرتبط بالأمن المادي فحسب، فلا يقتصر الشعور بالأمان على الأمن الموضوعي بحد ذاته بقدر الشعور بالثقة في القدرة على العناية بالذات. يقاتل الإنسان البدائي، المهدّد بحيوان شرس أو بالجوع، للدفاع عن نفسه أو يسافر بحثًا عن الطعام، وهو غير متيقن من نجاح جهوده، لكنه ليس مغلوبًا على أمره أو لا يمتلك وسائل دفاع ضد هذه المخاطر. في المقابل، يتعرض الإنسان المعاصر لمخاطر جمة، يعجز عن حماية نفسه قبالها، مثل: الحوادث النووية، المواد الغذائية المسرطنة، التلوث البيئي، الحرب، ارتفاع الضرائب، اجتياح المنظمات الكبرى لخصوصياته، والظواهر الاجتماعية والاقتصادية الوطنية المعرقلة لنمط حياته.

٦٩- لا يستطيع الإنسان البدائي فعل أي شيء إزاء المخاطر التي تواجهه كالمرض. فيتقبل المرض بصبر، ويعتبره أمرًا طبيعيًا، وليس خطأ أحد، ما لم يكن خطأ متخيلًا أو شيطانًا مجهولًا. لكن مخاطر الإنسان المعاصر أقرب إلى أن تكون من صنعه هو لا نتيجة الصدفة، إنها مفروضة عليه من أفراد آخرين لا يستطيع التأثير على قراراتهم لوحده. ومن ثم، يشعر بالإحباط والإهانة والامتعاض.

٧٠- وهكذا، فإن الإنسان البدائي يمتلك غالبًا أمنه بين يديه (إما كفرد أو كعضو في مجموعة صغيرة). في حين أن أمن الإنسان المعاصر في أيدي أشخاص آخرين أو منظمات بعيدة عن محيطه وأكبر من أن يتمكن من التأثير عليها شخصيًا. لذا، تندرج دوافع الإنسان المعاصر الأمنية ضمن المجموعتين الأولى والثالثة. حيث

في بعض النطاقات مثل الغذاء والمأوى وغيرها، فإنه يستطيع ضمان أمنه مقابل جهد ضئيل ومتواضع، لكنه ليس قادرًا على تحقيق هذا الأمن في نطاقات أخرى. قد يبسط هذا الأمر الوضع الحقيقي، لكنه يشير بطريقة تقريبية وعامة إلى اختلاف ظروف الإنسان الحديث عن ظروف الإنسان البدائي.

٧١- تؤثر دوافع كثيرة مؤقتة أو رغبات محبطة مصنفة ضمن دوافع المجموعة الثالثة على الناس، فقد يغضب المرء؛ لكن المجتمع الحديث لا يسمح بسيادة القتال، أو لا يسمح حتى بالتهجم اللفظي في العديد من الحالات. وقد يكون المرء مستعجلًا أو راغبًا في التحرك ببطء حينما يتنقل، لكن؛ لا خيار أمامه سوى التحرك مع تدفق حركة المرور، والامتثال لإشارات المرور. قد يود إنجاز عمله بطريقة مختلفة، لكن مديره هو الذي يحدد له قواعد العمل المنصوص عليها. وهكذا فالإنسان المعاصر مقيد بشبكة من القواعد والأنظمة (صريحة وضمنية) تثبط دوافعه، وتحبس رغباته، وتتداخل مع عملية السلطة. ولا يمكن إلغاء معظم هذه اللوائح التنظيمية لأنها ضرورية لضمان أداء المجتمع الصناعي بنحو فعّال.

٧٢- يتسامح المجتمع الحديث في بعض النواحي التي لا علاقة لها بأداء النظام، ويمكننا بشكل عام فعل ما نشاء. يمكننا اعتناق الدين الذي نؤمن به (طالما أنه لا يشجع على السلوك الذي يشكل خطورة على النظام). يمكننا معاشرة من نحب (طالما أننا نمارس «الجنس الآمن»). ويمكننا فعل ما نريد طالما أنه غير مهم. بينما يقيد النظام سلوكنا في الأمور المهمة.

٧٣- لا ينظم السلوك من خلال قواعد واضحة وأوامر حكومية فحسب، بل أيضًا عبر التحكم وممارسة الرقابة القسرية غير المباشرة، والضغط السيكولوجي، والتلاعب، والمنظمات غير الحكومية، ومختلف مؤسسات النظام. تستخدم معظم المنظمات الضخمة شكلًا من أشكال الدعاية للتلاعب بالمواقف والسلوك العام. ولا تقتصر الدعاية على الإعلانات التجارية والملصقات، بل أحيانًا تصاغ الدعاية دون وعي من صناعها، فعلى سبيل المثال: يعد محتوى البرامج الترفيهية شكلًا قويًا من أشكال الدعاية. ومثال على الإكراه غير المباشر: لا يوجد قانون ينص على ضرورة الذهاب إلى العمل يوميًا وتنفيذ أوامر المسؤولين. ولا يوجد ما يمنعنا قانونيًا من العيش في البرية مثل البدائيين أو بدء مشروع خاص. لكن من الناحية العملية، فإن المناطق البرية محدودة، والاقتصاد يحدد مجالًا محدودًا لأصحاب المشاريع الصغيرة، وإذن فلا نستطيع العمل إلا كموظفين عاديين.

٧٤- يعد استحواذ أفكار مثل إطالة العمر، والحفاظ على الحيوية البدنية والجاذبية الجنسية حتى سن متقدمة لدى الإنسان المعاصر، من أعراض اللا إشباع الناجمة عن الحرمان من عملية السلطة والشعور بالقوة. إلى جانب أزمة منتصف العمر، وعدم الاهتمام بإنجاب الأطفال الشائع في المجتمعات الحديثة، والمجهول تقريبًا في المجتمعات البدائية.

٧٥- الحياة في المجتمعات البدائية هي سلسلة من المراحل، فيحقق الإنسان البدائي احتياجات وغايات كل مرحلة، لينتقل

إلى المرحلة التالية بلا تردد. يمر الشاب بعملية السلطة حين يصبح صيادًا ماهرًا، ليس باعتبار القنص رياضة أو هواية كما هو الحال لدى الأرستقراطيين، ولكن لسدّ احتياجاته من الغذاء. (بينما تعد ممارسة السلطة لدى الفتاة في العصور البدائية أكثر تعقيدًا، وتتركز على السلطة الاجتماعية؛ التي لن نناقشها في هذا البحث). وعقب اجتياز مرحلة التكوين واكتساب المهارات بنجاح، لا يتردد الشاب في الزواج وتحمل مسؤوليات أسرة جديدة.

على النقيض من ذلك، يؤخر بعض الشباب في المجتمعات الحديثة الزواج وإنجاب الأطفال إلى أجل غير مسمى، لأنهم مشغولون للغاية في البحث عن نوع من «الإشباع» العابر. ونعتقد أن الإشباع الذي هم في حاجته هو تحقيق تجربة كافية في عملية السلطة بأهداف حقيقية بدلًا من أهداف الأنشطة البديلة المصطنعة.

وبعد نجاحه في تربية أبنائه، مرورًا بعملية السلطة من خلال تزويدهم بالضروريات المادية، يشعر الإنسان البدائي بأنه أنجز عمله وأنه مستعد لقبول الشيخوخة والموت (إن هو نجا طوال هذه المدة). من جهة أخرى، يشعر الإنسان المعاصر بالقلق من احتمال تدهور جسده ووفاته، ويتضح هذا من الجهد الذي يبذله ليحافظ على صحته ومظهره الخارجي. وذلك لأنهم لم يستخدموا إمكاناتهم البدنية في إشباع غاياتهم، ولم يسبق لهم استخدام أجسادهم في عملية السلطة بطريقة فعلية. لم يخشَ الإنسان البدائي، الذي استعان بجسده يوميًا لأغراض عملية، من الشيخوخة، بل الإنسان المعاصر

الذي لم يستخدم كل طاقته في العمل ووفرت له التقنية الحديثة ووسائل النقل اختصار المسافات والوصول بسهولة من سيارته إلى منزله. إن الإنسان الذي أشبع حاجته لعملية السلطة طيلة مراحل حياته أفضل استعدادًا لقبول نهاية تلك الحياة.

٧٦- وردًا على الحجج الواردة في هذا الجزء من البحث، قد يقول أحدهم: «يجب على المجتمع إيجاد طريقة لإتاحة عملية السلطة للناس». غير أن هذا لا ينجح لمن يحتاج إلى الاستقلالية في عملية السلطة، فتتدمر قيمة أي فرصة لأن المجتمع هو من يمنحها لهم، إنهم يحتاجون فرصهم الخاصة، فكل فرصة يعطيها النظام لابد أن تكون مقيّدة، ولتحقيق الاستقلال يجب عليهم تسلم زمام الأمر.

كيف يتأقلم بعض الأفراد في المجتمع الصناعي؟

٧٧- لا يعاني كل فرد في المجتمع الصناعي التقني من مشاكل سيكولوجية، ويدعي البعض أنهم راضون تمامًا عن المجتمع. نناقش فيما يلي أسباب تباين الأفراد في استجابتهم للمجتمع الحديث.

٧٨- أولًا، لا شك أن ثمة اختلافات في القوة الدافعة باتجاه السلطة. يمتلك بعض الأفراد دافعًا ضعيفًا للسلطة وحاجتهم إلى عملية السلطة محدودة، أو لا يحتاجون سوى القليل من الاستقلالية في عملية السلطة. ومن ثم، يتسمون بسهولة الانقياد التي من شأنها أن تجعلهم سعداء مثل زنوج المزارع المستعبدين في الولايات الأميركية الجنوبية القديمة، (لا نقصد بذلك الاستهزاء بـ«زنوج المزارع»، لأن

معظم المستعبدين منهم لم يكونوا راضين عن عبوديتهم. بل السخرية من أولئك المقتنعين بالعبودية).

٧٩- تعتبر دوافع بعض الأشخاص استثنائية لتلبية حاجتهم إلى عملية السلطة، على سبيل المثال: يقضي بعض الأفراد حياتهم وهم يحاولون صعود السلم الوظيفي دون الشعور بالملل، رغم قوة دافعهم لتحسين وضعهم الاجتماعي والمالي.

٨٠- تتنوع قابلية الأفراد للدعاية وتقنيات التسويق، حيث يستجيب بعضهم للدعاية حتى إذا اضطرتهم إلى إنفاق مبالغ هائلة، ولا يستوفون رغباتهم المستمرة من صناعة التسويق لشراء أي شيء يظهر أمامهم. ومن ثم، يشعرون دائمًا بضغوط مالية حتى لو كان دخلهم مرتفعًا، والإحباط بسبب رغباتهم الملحة لشراء أي سلعة معلن عنها.

٨١- بينما تنخفض قابلية الآخرين الذين لا يهتمون بالمال، لتقنيات الإعلان والتسويق. ولا يستوعب اقتناء المال حاجتهم إلى عملية السلطة.

٨٢- في حين أن أصحاب القابلية المتوسطة لتقنيات الإعلان والتسويق قادرون على جمع ما يكفي من المال للحصول على السلع والخدمات الضرورية وتلبية رغباتهم، بشرط بذل جهد متقن وجبار، مثل: العمل الإضافي، الحصول على وظيفة ثانية، والارتقاء الوظيفي. وبالتالي، يوفر اقتناء المال عملية السلطة. ولا يعني ذلك حتمًا إرضاء حاجتهم الكلية. فربما تكون استقلاليتهم ناقصة في

عملية السلطة، حينما تكون أعمالهم محددة باتباع الأوامر مثلًا، أو حين تكون دوافعهم محبطة فيما يخص الأمن أو العدوان. (أشعر بالذنب بسبب التبسيط المفرط في الفقرات ٨٠-٨٢ لأنني أفترض أن رغبة الاقتناء المادي ناشئة عن صناعة الإعلان والتسويق، وبالطبع، لا تسير الأمور بهذه البساطة).

٨٣- يستجيب بعض الأفراد جزئيًا لعملية السلطة بتحديد هويته عبر الانتماء إلى منظمة قوية أو حركة جماهيرية. وينضم الفرد الذي يفتقر إلى الأهداف أو القوة إلى حركة أو منظمة تتبنى أهدافه الخاصة وطموحاته، ثم يعمل على تحقيق تلك الطموحات. وإذا حقق بعضًا منها، يشعر باجتياز عملية السلطة، على الرغم من أن جهوده الشخصية لم تؤدِّ سوى دور ضئيل في إطار الحركة أو المنظمة المنتسب إليها.

استغل الفاشيون والنازيون والشيوعيون هذه الظاهرة في تجنيد الأتباع، بالإضافة إلى المجتمعات الحديثة رغم عدم وضوحها بصورة فظة، على سبيل المثال: أغضب رئيس بنما خلال الفترة ١٩٨٣-١٩٩٠، مانويل نورييغا، الولايات المتحدة (هدف). ومن ثم، غزت واشنطن بنما (جهد) وأطاحت بحكمه (تحقيق الهدف). وهكذا، توصلت الولايات المتحدة إلى مرامها من خلال عملية السلطة وخاض الأميركيون تجربة السلطة بشكل غير مباشر، بسبب انتمائهم إلى الولايات المتحدة. وأعطت الموافقة العامة الواسعة على غزو بنما الشعب الأميركي الإحساس بالقوة. نلاحظ هذه

الظاهرة أيضًا في الجيوش، الشركات، الأحزاب السياسية، المنظمات الإنسانية، الحركات الدينية والأيديولوجية. تميل الحركات اليسارية بشكل خاص إلى جذب الأفراد الذين يسعون إلى تلبية حاجتهم إلى السلطة. غير أن معظم الناس المنتمين إلى منظمة ضخمة أو حركة جماهيرية لا يستوعبون عملية السلطة كليًا.

٨٤- يستجيب الأفراد أيضًا لعملية السلطة عن طريق الأنشطة البديلة، وكما أوضحنا في الفقرات ٣٨-٤٠، يوجه النشاط البديل نحو هدف اصطناعي من أجل تحقيق غاية معينة من متابعة أهدافه، وليس لأنه يحتاج إلى تحقيق هذه الغاية بحد ذاتها. على سبيل المثال: لا يوجد دافع عملي من بناء عضلات ضخمة، أو ضرب كرة صغيرة لإدخالها في حفرة أو الحصول على سلسلة من الطوابع البريدية. مع ذلك، يستغرق كثير من الناس أوقاتهم وجهودهم بشغف لبناء الأجسام، أو لعب الغولف أو جمع الطوابع البريدية. في حين يعد البعض الآخر «موجّهين» أكثر من غيرهم، وبالتالي، يتشبثون بالنشاط البديل ويعلقون عليه الآمال لمجرد أن الناس من حولهم يعاملونهم بأهمية أو لأن المجتمع يخبرهم بأنهم ذوي أهمية، وهذا هو سبب اجتهادهم في الأنشطة غير النافعة، مثل: المنافسات الرياضية، لعب الورق (البلوت)، الشطرنج، والفعاليات العلمية الغامضة، في حين أن أصحاب الرؤية الواضحة لا يعتبرونها سوى أنشطة بديلة لا تحقق احتياجاتهم من عملية السلطة. وقد تكون طريقة اكتساب لقمة العيش أحيانًا نشاطًا بديلًا، فدافع هذا النشاط الجزئي هو الحصول على الضروريات المادية والمكانة الاجتماعية،

لكن لدى آخرين، فالكماليات والوضع الاجتماعي تصنعها الدعاية وتجعلهم يرغبون فيها.

يبذل الأفراد في عملهم جهدًا أكبر مما هو ضروري لجمع الأموال والوصول إلى المنزلة الرفيعة، مما يجعل هذا الجهد الإضافي يشكل نشاطًا بديلًا. وإلى جانب الاستثمار الانفعالي المرافق له، يعد الجهد الإضافي أحد قوى العمل الفعالة لتطوير وتثبيت النظام، وتقييد حرية الفرد (انظر الفقرة ١٣١) لاسيما لدى معظم العلماء والمهندسين المبدعين، حيث يصبح العمل أقرب إلى النشاط البديل. تستحق هذه النقطة مناقشة متمايزة لأهميتها، لذا أوردناها في الفقرات ٨٧-٩٢.

٨٥- في هذا الجزء، أسهبنا في الكلام عن الأفراد الذين يلبون حاجتهم إلى عملية السلطة بدرجة أكثر أو أقل من المطلوب. بالنسبة لغالبية الناس، لا تُستوفى الحاجة إلى عملية السلطة تمامًا. أولًا، يعد الأفراد الذين لديهم دافع جشع للحصول على مركز اجتماعي، أو المعتكفون على نشاط بديل، أو الذين يتحدون بقوة مع حركة أو منظمة قادرة على إشباع حاجتهم إلى السلطة، شخصيات استثنائية. بينما لا يقتنع آخرون بالأنشطة البديلة أو الانتساب إلى منظمة معينة (انظر الفقرتين ٤١ و٦٤). وثانيًا، يفرض النظام قدرًا كبيرًا من القيود وأدوات التحكم من خلال القواعد التنظيمية الجلية أو التنشئة الاجتماعية، مما يؤدي إلى نقص الاستقلالية، وتثبيط الإرادة بسبب استحالة تحقيق أهداف معينة وضرورة كبح الكثير من الدوافع.

٨٦- وحتى لو اقتنع معظم أفراد المجتمع الصناعي التقني بطريقة حياتهم، فإنا نعترض على هذا الشكل المجتمعي لأسباب عدة، من بينها: أنه يتسم بإهانة الفرد لأنه يسعى إلى تحقيق عملية السلطة من خلال أنشطة بديلة أو الانتماء إلى منظمة ما، عوضًا عن اتباع نهج الأهداف الحقيقية.

دوافع العلماء

٨٧- يقدم العلم والتقنية أهم الأمثلة على الأنشطة البديلة. إذ يدعي بعض العلماء أن دوافعهم العلمية تتمحور حول «حب المعرفة » والرغبة في «إفادة البشرية». بيد أنه من السهل توضيح أن هذين المحفزين لا يمثلان الدافع الرئيسي لمعظم العلماء. فبالنسبة إلى «حب المعرفة» والفضول، فإن هذا المفهوم مُحَال، لأن معظم العلماء يعكفون على حل مشاكل متخصصة لا يمكن اعتبار الغاية منها حب استطلاع اعتيادي. على سبيل المثال: هل يهتم الفلكي، أو عالم الرياضيات، أو المختص بعلم الحشرات بخصائص المادة الكيميائية «إيزوبروبيل تريميثيل ميثان»؟ بالطبع لا. إن الكيميائي هو الشخص الوحيد المتطلع إلى معرفة أمر من هذا القبيل، لأن علم الكيمياء هو نشاطه البديل. وهل الكيميائي المحب للمعرفة يهتم بالتصنيف المناسب لنوع جديد من الخنافس؟ لا، لأن عالم الحشرات هو المهتم فقط بهذه المسألة، ويهتم بها لأن علم الحشرات هو نشاطه البديل. إذا توجب على الكيميائي وعالم الحشرات بذل جهود رصينة للحصول على الضرورات البدنية، واستعانا بقدراتهما بطريقة

لافتة للانتباه في مهام غير علمية، فلن يكترثا بمعرفة الإيزوبروبيل تريميثيل ميثان أو تصنيف الخنافس. لنفترض أن قلة الموارد المالية المخصصة للدراسات العليا أدت إلى أن يصبح الكيميائي وسيط تأمين. في هذه الحالة، لن يهتم إلا بمسائل التأمين، ويهمل خصائص الإيزوبروبيل تريميثيل ميثان. لذا، لا يكتفي العلماء بدافع حب الاستطلاع لاستنزاف وقتهم وجهدهم في العمل.

٨٨- لا يمكن القبول بمبرر «منفعة الإنسانية» لأن بعض الأعمال العلمية لا ترتبط بمنفعة البشرية، مثل علم الآثار والحضارات أو اللغويات المقارنة. بينما تقدم مجالات العلوم الأخرى إمكانيات جمة وجديرة بالاهتمام. مع ذلك، يتقد حماس العلماء في هذه المجالات كما لو أنهم يطورون لقاحات أو يدرسون تلوث الهواء، على سبيل المثال: الدكتور إدوارد تيلر، الذي كان له دور مؤثر في تنمية محطات الطاقة النووية، هل تنبع مشاركته من رغبته في إفادة البشرية؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يؤثر إدوارد في القضايا الإنسانية الأخرى؟ لماذا ساهم في تطوير القنبلة الهيدروجينية، وهل تندرج مساهمته في إطار منفعة الإنسانية؟ وكما هو الحال في الإنجازات العلمية الأخرى، نتساءل عن مدى فائدة محطات الطاقة النووية؟ هل توازن فائدة الحصول على كهرباء منخفضة القيمة التعرض لخطر النفايات المتراكمة وأخطار الحوادث؟ رأى تيلر جانبًا واحدًا من القضية، ولم تكن مشاركته المؤثرة في الطاقة النووية نابعة من رغبته في «إفادة البشرية» بل من طموحه لإنجاز شخصي ورؤيته الخاصة للمنفعة العملية.

٨٩- ينطبق الشيء ذاته على العلماء بشكل عام، ومع وجود استثناءات نادرة محتملة، فالعلماء لا يستند دافعهم إلى حب المعرفة ولا الرغبة في إفادة الإنسانية إنما الحاجة إلى اجتياز عملية السلطة: الرغبة في حل مشكلة علمية (هدف)، بحث (جهد)، وحل المشكلة (تحقيق الهدف). يعتبر العلم نشاطًا بديلًا لأن العلماء يعملون أساسًا لتحقيق غايتهم التي تصرفهم عن غاية العمل.

٩٠- بالطبع، ليس الأمر بهذه البساطة، لأن ثمة دوافع أخرى لجهود العلماء، كاقتناء المال والمكانة الاجتماعية. وقد يكون لدى بعض العلماء دوافع لتعزيز مكانتهم الاجتماعية (انظر الفقرة رقم ٧٩) تقوي من حافزهم لأداء أعمالهم. ولا شك أن أغلبية العلماء، مثل بقية أفراد المجتمع، معرضون لتقنيات الإعلان والتسويق بدرجة أقل أو أكثر، ويحتاجون إلى المال لإرضاء رغبتهم في الحصول على السلع والخدمات. ومن ثم، قد لا يكون العلم نشاطًا بديلًا بحتًا، لكنه كذلك في جزء كبير منه.

٩١- يشكل العلم والتكنولوجيا حركة جماهيرية مؤثرة، ويستجيب العلماء لحاجتهم إلى السلطة من خلال الانتماء إلى هذه الحركة الجماهيرية (انظر الفقرة رقم ٨٣).

٩٢- وهكذا، تسير العلوم بلا تبصر، دون اعتبار لمنفعة الإنسانية الحقيقية أو لأي معيار آخر، بل تلبية لاحتياجات العلماء السيكولوجية، والمسؤولين الحكوميين والمدراء التنفيذيين للشركات الممولة للأبحاث.

طبيعة الحرية

٩٣- لا يمكن إصلاح المجتمع الصناعي التقني بطريقة تمنعه من تضييق نطاق حرية الإنسان تدريجيًا. ويمكن تفسير كلمة «الحرية» بمعاني مختلفة، لذا، يجب توضح أولًا نوع الحرية التي نهتم بها.

٩٤- نعني بكلمة «الحرية» إتاحة فرصة اجتياز عملية السلطة بأهداف حقيقية وليس بأهداف اصطناعية لأنشطة بديلة، وبدون تدخل أو تلاعب أو رقابة، لاسيما رقابة المنظمات الكبرى. تعني الحرية السيطرة (سواءً كأفراد أو أعضاء ضمن مجموعة صغيرة) على قضايا الحياة والموت المتصلة بتوافر الطعام، الملبس، المأوى، والدفاع عن النفس ضد أي تهديدات بيئية. وتعني أيضًا امتلاك السلطة والإحساس بالقوة للتحكم بظروف المرء، وليس السيطرة على الآخرين وظروف معيشتهم. لا يمتلك المرء الحرية إذا كان الأفراد والمنظمات يسيطرون على حياته، بصرف النظر عن كيفية ممارستهم للسلطة: بإحسان، على نحو متسامح، متحرر، أو متزمت ومتشدد. ينبغي عدم الخلط بين إتاحة أجواء الحرية والتساهل بها إلى درجة انعدام القيود (انظر الفقرة رقم ٧٢).

٩٥- يعد المجتمع حرًا عندما يضمن الدستور عددًا معينًا من الحقوق. وتحدد درجة الحرية الشخصية في مجتمع ما من خلال البنية الاقتصادية والتقنية أكثر من قوانين المجتمع أو نموذج الحكومة. كانت معظم مجتمعات الهنود الحمر في إقليم نيو إنغلاند

الأميركي أنظمة ملكية، وكانت مدن النهضة الإيطالية تحت سيطرة ديكتاتوريين. لكن عند تأمل أوضاع هذه المجتمعات، يلاحظ المرء أن الحرية الشخصية المتاحة كانت أكثر من حرية المجتمع الحديث. ويرجع ذلك جزئيًا إلى نقص آليات فرض إرادة الحاكم بالقوة: لا يوجد قوات شرطة حديثة ومنظمة، اتصالات سريعة لمسافات طويلة، كاميرات مراقبة، وملفات بيانات السكان. وبالتالي، لا يمكن السيطرة على السكان أو إخضاعهم للمراقبة ليلًا ونهارًا.

٩٦- بالنسبة للحقوق الدستورية، على سبيل المثال: فحرية الصحافة التي تعد أداة بالغة الأهمية للحد من تركيز السلطة السياسية وللكشف عن أخطاء السياسيين وسوء سلوكهم. لا يهتم بها سوى فئة قليلة في المجتمع. فمعظم وسائل الإعلام تسيطر عليها مؤسسات النظام، يستطيع أي فرد بالقليل من المال طباعة ما يريد من المنشورات، أو نشره على شبكة الإنترنت بطريقة ما، بيد أن منشوراته قد تغرق بسبب الكم الهائل لمواد وسائل الإعلام، وقد لا تؤثر عمليًا. ومن ثم، قد يعتبر التأثير على المجتمع بالكلمات شبه مستحيل للأفراد والمجموعات الصغيرة.

هذه المقالة على سبيل المثال، فإن لم أكن قمت بأعمال عنف، وعرضت هذه الكتابات على ناشر ما، فقد لا يقتنع بها، وقد ينشرها فلا تجذب كثير من القراء، لأنهم يستمتعون أكثر بمشاهدة برامج الترفيه التي تبثها وسائل الإعلام بدلًا من قراءة مقالة أو بحث رصين. وبافتراض إقبال كثير من القراء على هذه الكتابات، سرعان ما ينسون ما قرأوه لأن عقولهم مغمورة بالمواد الهائلة التي تعرضها

وسائل الإعلام. ومن ثم، لإيصال رسالتنا إلى الجمهور وترك انطباع دائم، توجّب علينا قتل الناس.

٩٧ -إن الحقوق الدستورية نافعة إلى حدٍ ما، لكنها لا تضمن سوى المفهوم البرجوازي للحرية، الذي وفقًا له فإن الإنسان الحر عنصر أساسي في الآلة الاجتماعية ولا يحق له سوى مجموعة معينة من الحريات المقررة والمحددة؛ اللازمة لتلبية احتياجات الآلة الاجتماعية أكثر من احتياجات الفرد. وهكذا، يحظى الإنسان البرجوازي «الحر» بالحرية الاقتصادية لتدعيم الازدهار والتقدم، حرية الصحافة لأن الانتقادات العامة تقيد سلوكيات القادة السياسيين السيئة؛ والحق في محاكمة عادلة لأن السجن بناءً على أهواء ورغبات الأقوياء يشوه صورة النظام. وتتضح هذه الرؤية في موقف سيمون بوليفار، العسكري والسياسي الفنزويلي. من منظوره، لا يستحق الناس الحرية إلا إذا استخدموها لتعزيز التقدم كما تصوّره البرجوازية. واعتنق مفكرون برجوازيون آخرون وجهة نظر مماثلة للحرية باعتبارها مجرد وسيلة لتحقيق الغايات الجماعية، منهم: تشستر سي تان، الذي يبين في كتابه «الفكر السياسي الصيني في القرن العشرين»، صفحة رقم ٢٠٢، فلسفة زعيم حزب الكومينتانغ هو هان مين، بالقول: «يمنح الفرد حقوقًا لأنه عضو في المجتمع وتتطلب حياته الاجتماعية هذه الحقوق». ويقصد هو هان مين مجتمع الأمة بأسرها. وفي الصفحة رقم ٢٥٩، سرد تشستر: «استنادًا إلى كارسوم تشانغ تشون - ماي، رئيس الحزب الاشتراكي الصيني، يجب استخدام الحرية لمصلحة الدولة والشعب». ما نوع

الحرية التي يملكها المرء إذا كان بإمكانه استخدامها وفقًا لرؤية شخص آخر؟ لا يتأطر مفهوم الحرية بتصور بوليفار أو تشانغ أو غيرهما من منظري البرجوازية. تعتمد مشكلة هؤلاء المنظرين على ملائمة تطوير وتطبيق نظرياتهم الاجتماعية لأنشطتهم البديلة. نتيجة لذلك، أعدت النظريات لتلبية احتياجات المنظرين أكثر من احتياجات بقية أفراد المجتمع غير المحظوظين بالعيش في مجتمع تنطبق عليه القواعد البرجوازية.

٩٨- من جانب آخر، لا ينبغي افتراض أن الإنسان لديه الحرية الكافية لمجرد قوله: «لدي ما يكفي منها». فالحرية مقيدة جزئيًا بالضوابط النفسية للاوعي الناس، يتحكم الميثاق الاجتماعي بأفكارهم حول الحرية أكثر من متطلباتهم الحقيقية. على سبيل المثال يعتقد كثير من اليساريين المفرطين اجتماعيًا، أن معظم الناس، بما فيهم هم أنفسهم، أقل اجتماعية من الباقين، لكن اليساري المفرط اجتماعيًا يدفع ثمنًا نفسيًا باهظًا من أجل تنشئته الاجتماعية الرفيعة.

بعض مبادئ التاريخ

٩٩- التاريخ مجموع مكونين: مكون غير منتظم يتشكل من أحداث لا يمكن التنبؤ بها ولا تتبع نمطًا ملحوظًا قابلًا للتمييز، ومكون منتظم يتألف من اتجاهات تاريخية بعيدة المدى. في هذا البحث، نهتم بالاتجاهات بعيدة المدى.

١٠٠- المبدأ الأول: إذا حدث تغيير بسيط مؤثر على اتجاه

تاريخي طويل المدى، سيكون تأثير التغيير مؤقتًا ويعود الاتجاه سريعًا إلى حالته الأولية. مثال: يعتبر تصميم حركة إصلاح لإزالة الفساد السياسي في مجتمع ما ذا تأثير مؤقت؛ لأن الفساد سيتسلل إلى مؤسسات المجتمع مرة أخرى، ليبقى مستوى الفساد السياسي ثابتًا، أو يتغير بأناة مع تطور المجتمع. يكون التنظيف السياسي دائمًا إذا كان مصحوبًا بتغييرات اجتماعية واسعة النطاق؛ في حين أن المجتمع لا يكتفي بالتغيير البسيط المحدود. وإذا حدث تغيير طفيف في الاتجاه التاريخي طويل الأجل، سيظهر للعيان بأنه دائم لأن أفعال التغيير تتحرك بالتوازي مع الاتجاه التاريخي، بحيث لا يتم تغيير الاتجاه بدفعه خطوة إلى الأمام.

١٠١- يكاد يكون المبدأ الأول بلا معنى ومكرر. إذا لم يستقر الاتجاه في التغيرات الضئيلة، سيتبع مسارات عشوائية بدلًا من اتباع اتجاه محدد. بعبارة أخرى، لن يكون هناك اتجاه طويل الأجل على الإطلاق.

١٠٢- المبدأ الثاني: إذا حدث تغيير واسع بدرجة كافية لتغيير الاتجاه التاريخي طويل الأمد بشكل دائم، سيتغير المجتمع بأسره. بتعبير آخر، يعتبر المجتمع نظامًا مترابط الأجزاء، ولا يمكنك تغيير أي جزء أساسي منه بشكل دائم دون تغيير بقية الأجزاء.

١٠٣- المبدأ الثالث: إذا حدث تغيير واسع بدرجة كافية لتغيير المجتمع باتجاه بعيد المدى ودائم، يترتب على ذلك نتائج شاملة لا يمكن التنبؤ بها، ما لم تمر مجتمعات أخرى مختلفة بالتغيير والعواقب

ذاتها. في هذه الحالة، يمكن التنبؤ على أسس تجريبية، بأن مجتمعًا آخر تجاوز تغييرًا مماثلًا ونتج عنه عواقب متشابهة.

١٠٤- المبدأ الرابع: لا يمكن تصميم نوع جديد من المجتمعات على الورق، ولا يمكن التخطيط لابتكار شكل مجتمعي حديث، ثم إعداده والتطلع إلى اتباع أفراده النهج المبتكر لهم.

١٠٥- ينبع المبدآن الثالث والرابع من تعقيد المجتمعات البشرية. يؤثر أي تغيير في السلوك البشري على اقتصاد المجتمع وبيئته المادية. ويؤثر الاقتصاد على البيئة، كما تؤثر التغيرات في الاقتصاد والبيئة على السلوك البشري بطرق معقدة وغير متوقعة؛ وهكذا دواليك. إن شبكة الأسباب والتأثيرات متشابكة بحيث لا يمكن تفكيكها وإدراكها.

١٠٦- المبدأ الخامس: لا يختار الأفراد شكل مجتمعهم بوعي ومنطق. وتتطور المجتمعات بواسطة عمليات التطور الاجتماعي التي لا تخضع لسيطرة إنسانية منطقية.

١٠٧- المبدأ الخامس: هو نتيجة للمبادئ الأربعة المذكورة سابقًا.

١٠٨- للتوضيح: من خلال المبدأ الأول، تسير محاولة الإصلاح الاجتماعي إما في الاتجاه الذي يتطور فيه المجتمع (بحيث تعمل على تسارع وتيرة التغيير الذي كان سيحدث في أي حال) أو يكون تأثيرها انتقاليًا، وينزلق المجتمع مرة أخرى إلى أخدوده القديم. ومن ثم، لإجراء تغيير دائم في اتجاه تطوير أي جانب من

جوانب المجتمع، فإن الإصلاح غير كاف ويستلزم القيام بثورة، (لا تنطوي الثورة بالضرورة على انتفاضة مسلحة أو إسقاط حكومة). وبموجب المبدأ الثاني، تغير الثورة كافة جوانب المجتمع. بالمبدأ الثالث، تحدث تغييرات لم يكن يتوقعها أو يريدها الثوار. وبالمبدأ الرابع، ينشئ الثائرون أو «المثاليون» نوعًا جديدًا من المجتمع، وقد لا ينجح الأمر كما خططوا له.

١٠٩- لا تقدم الثورة الأميركية نموذجًا مضادًا. ولم تكن ثورة بالمعنى الحرفي للكلمة، بل كانت حرب تَحَرُّر أعقبها إصلاح سياسي بعيد المدى. لم يغير الآباء المؤسسون اتجاه تطور المجتمع الأميركي، ولم يطمحوا إلى تحقيق ذلك. لقد حرروا تطور المجتمع الأميركي من التأثير المعوق للحكم البريطاني. ولم يغير إصلاحهم السياسي أي اتجاه أساسي، بل ناضل لتنمية الثقافة السياسية الأميركية. تحرك المجتمع البريطاني، الذي تفرع منه المجتمع الأميركي، باتجاه الديموقراطية النيابية. وقبل حرب التحرر، كان الأميركيون يمارسون الديمقراطية النيابية في المجالس الاستعمارية.

تأسس النظام السياسي الذي حدده الدستور على غرار النظام البريطاني والمجالس الاستعمارية، مع إجراء تغييرات واسعة موازية للعالم الناطق باللغة الإنجليزية. والدليل على ذلك هو أن بريطانيا وجميع مستعمراتها التي يسكنها ذوي الأصول البريطانية انتهى بهم المطاف إلى أنظمة ديموقراطية نيابية مشابهة لنظام الولايات المتحدة الأميركية. بينما لو تشدد الآباء المؤسسون ورفضوا التوقيع

على بيان التحرر، سيختلف أسلوب حياتنا عما هو عليه اليوم. قد يكون لدينا علاقات أوثق مع بريطانيا، وكان من الممكن تأسيس برلمان وانتخاب رئيس وزراء بدلًا من الكونغرس والرئيس. لذا، لا تقدم الثورة الأميركية نموذجًا مضادًا لمبادئنا، بل تفسيرًا جيدًا لها.

١١٠- على المرء الاستعانة بالإدراك العام لدى تطبيق هذه المبادئ التي تم التعبير عنها بلغة غير دقيقة تسمح بتفسيرات شتى واستثناءات. لا تعد هذه المبادئ قوانين لا يمكن انتهاكها، إنما بديهيات، أو تعليمات إرشادية للتفكير توفر ترياقًا جزئيًا ضد الأفكار البسيطة حول مستقبل المجتمع. وينبغي أن تؤخذ هذه المبادئ في الحسبان باستمرار، وكلما توصل المرء إلى نتيجة تتعارض معها، ينبغي مراجعتها والتفكير فيها بإمعان، وتثبيت النتائج إن كان ثمة أسباب مقنعة ومتأصلة.

- لا يمكن إصلاح المجتمع الصناعي - التقني

١١١- تساهم المبادئ المذكورة أعلاه في إظهار مدى الصعوبة واليأس من إصلاح النظام الصناعي، لمنعه من تضييق نطاق الحريات تدريجيًا. كان ثمة اتجاه ثابت في الثورة التقنية الصناعية لتقوية النظام على حساب الحرية الفردية والاستقلال الذاتي المحلي. ومن ثم، يعد أي تغيير مُهَيّأ لحماية حرية الإنسان من التكنولوجيا مخالف للاتجاه الأساسي في تطوير المجتمع. وبالتالي، سيكون مثل هذا التغيير إما مؤقتًا -سرعان ما تغمره أمواج التاريخ- أو شاملًا

إذا كان واسع النطاق بدرجة كافية لديمومته، من خلال المبدأين الأول والثاني. ينتج عن تغيير المجتمع بطريقة لا يمكن التنبؤ بها مهلكات جمة (المبدأ الثالث). ولن تحدث التغييرات الكبرى المؤدية إلى اختلافات دائمة لصالح الحرية، لأنها ستعطل النظام على نحو خطير. لذا، ستكون محاولات الإصلاح خجولة أكثر من كونها فعالة. وحتى إذا حدثت تغييرات مؤدية إلى اختلافات شاسعة وصلبة، سوف تتقهقر فيما إذا ظهرت آثارها المدمرة. لا يمكن تحقيق التغييرات الجذرية لصالح الحرية إلا عبر أفراد مستعدين لقبول أي انتقال جذري خطير وغير متوقع للنظام بأكمله، أي عبر ثوّار، لا إصلاحيين.

١١٢- يقدم الأشخاص التواقون إلى إنقاذ الحرية من دون التضحية بمزايا التقنية المفترضة مخططات أولية أو شكلًا مجتمعيًا ساذجًا للمواءمة بين الحرية والتقنية. وبغض النظر عن اقتراح هؤلاء الأشخاص لوسائل عملية يمكن من خلالها إنشاء الشكل المجتمعي الجديد، وفقًا للمبدأ الرابع فإنه حتى إذا أمكن تأسيس الشكل الجديد للمجتمع، فهو إما أن ينهار أو يعطي نتائج مختلفة تمامًا عن تلك المتوقعة.

١١٣- بناءً على الأسباب الموجبة العامة، قد يبدو من المستبعد العثور على أي طريقة لتغيير المجتمع توائم بين الحرية والتقنية الحديثة. وتوضح الفقرات التالية أسبابًا محددة لاستنتاج تناقض الحرية مع التقدم التقني.

حتمية تقييد الحرية في المجتمع الصناعي

١١٤- كما هو موضح في الفقرات ٦٥-٧٧ و٧٠-٧٣، يقيد الإنسان المعاصر بشبكة من القواعد والقوانين، ويستند مصيره إلى أفعال أفراد بعيدين عن محيطه ولا يستطيع التأثير على قراراتهم. وهذا ليس نتيجة الصدفة أو بسبب طغيان البيروقراطيين المتعجرفين، بل إنه أمر ضروري ومتعذر تجنبه في أي مجتمع متقدم تقنيًا. ينبغي على النظام تنسيق السلوك البشري بدقة من أجل تأدية العمل بفاعلية. وأثناء العمل، يتعين على الناس تنفيذ ما يؤمرون به، وإلا ستعم الفوضى في عمليات الإنتاج. يجب أن تدار البيروقراطيات بمقتضى قواعد صارمة. ويؤدي أي تقدير أو محاباة شخصية للبيروقراطيين من المستوى الأدنى إلى عرقلة النظام وتبادل اتهامات الإجحاف والتحيز بسبب الاختلافات في طريقة ممارسة البيروقراطيين الفردية لسلطتهم التقديرية. يمكن إلغاء بعض القيود المفروضة على الحريات، بيد أن تنظيم المؤسسات الرئيسية للحياة العامة ضروري لأداء المجتمع الصناعي-التقني، مما ينتج عنه إحساس الفرد العادي بالعجز والضعف. رغم ذلك، قد تُستبدل اللوائح الرسمية تدريجيًا بالأدوات السيكولوجية التي تجعلنا نرغب بتنفيذ ما يطلبه النظام منا، مثل: تقنيات الدعاية، الأساليب التعليمية، وبرامج «الصحة الذهنية».

١١٥- يجبر النظام الأفراد على التصرف بطرق تخالف النمط الطبيعي للسلوك البشري. على سبيل المثال: يحتاج النظام إلى علماء

ورياضيين ومهندسين. ولذا، يضغط على الأطفال للتفوق في هذه المجالات. ومن غير الطبيعي أن يقضي الطلاب المراهقون معظم وقتهم جالسين في مكتبتهم لاستيعاب الدروس، لأن المراهق الطبيعي يرغب بقضاء وقته في نشاط تواصلي مع العالم الحقيقي. في الشعوب البدائية، يتدرب الأطفال على القيام بأنشطة منسجمة باعتدال مع الدوافع البشرية الطبيعية، حيث يتدرب أبناء الهنود الأميركيين، كنموذج، على ممارسة هوايات وأنشطة في الهواء الطلق. في حين أنه في المجتمع الحديث، يجبر الأطفال على دراسة المواد التقنية.

١١٦- نتيجة لضغط النظام المستمر لتغيير السلوك البشري، يلاحظ تنامٍ تدريجي في عدد الأفراد الذين لا يستطيعون أو لا يتأقلمون مع متطلبات المجتمع: مستنزفات الرفاهية، عصابات الشباب الإجرامية، أعضاء الطوائف، المتمردون المناهضون للحكومة، مدمرو البيئة المتطرفون، المتسربون من المدارس قبل حصولهم على الشهادة، والمعارضون من مختلف الأنواع.

١١٧- في أي مجتمع متقدم تقنيًا، يعتمد مصير الفرد على القرارات التي لا يستطيع تعديلها أو التأثير عليها. ولا يمكن تقسيم المجتمع التقني إلى تجمعات صغيرة مستقلة، لأن الإنتاج يعتمد على تعاون أعداد غفيرة من الناس والآلات. ومن ثم، يجب تنظيم المجتمع واتخاذ القرارات الإيجابية التي تؤثر على غالبية السكان. عندما يؤثر قرار ما على مليون نسمة، فإن متوسط الأفراد المتضررين جزء واحد من المليون. وما يحدث عادةً من الناحية العملية هو أن

القرارات تصاغ من موظفين رسميين ومدراء تنفيذيين للشركات، أو متخصصين تقنيين، وحتى في حالة الانتخاب عندما يصوت عامة الشعب على قرار ما، لا يشمل عدد الناخبين كافة أفراد المجتمع. وبالتالي، لا يؤثر معظم الأفراد -بشكل قابل للقياس- على القرارات الرئيسية التي تغير حياتهم سلبيًا في بعض الأحيان. لا توجد طريقة يمكن تصورها لإصلاح هذا الشأن في أي مجتمع متقدم تقنيًا. يحاول النظام «حل» هذه المشكلة من خلال الدعاية التي تجعل الأفراد يؤيدون قراراته، ويعد الأمر مهينًا إذا نجح «حل الدعاية» في تحويل مشاعر الناس من السخط إلى الرضى بدون أي تغيير إيجابي فعلي في حياتهم.

١١٨- يدافع المحافظون وغيرهم عن «الحكم الذاتي المحلي». كانت التجمعات المحلية تتمتع بالحكم الذاتي، وكلما ازداد تداخل المجتمعات المحلية واعتمادها على الأنظمة واسعة النطاق (مثل المرافق العامة، شبكات الكمبيوتر، أنظمة الطرق السريعة، وسائل الإعلام الجماهيري ونظام الرعاية الصحية الحديثة)، انخفضت استقلاليتها تدريجيًا. وينبع تقليص الاستقلالية من تأثير التقنية المطبقة في مكان ما على سكان مدن وأقاليم متباعدة. يلوث استخدام مبيدات الآفات أو المواد الكيميائية بالقرب من نهر أو خليج إمدادات المياه على بعد مئات الأميال في اتجاه مجرى النهر، ويؤثر الاحتباس الحراري على العالم أجمع.

١١٩- لا يوجد نظام لتلبية الاحتياجات البشرية. وبدلًا من ذلك، يتغير السلوك البشري لملائمة احتياجات النظام. ولا يرتبط

ذلك بالأيديولوجية السياسية أو الاجتماعية التي قد تتظاهر بتوجيه النظام التقني. إنه خطأ التكنولوجيا، لأن النظام لا يسير وفقًا لأيديولوجية بل بالضرورة التقنية. ويستوفي النظام العديد من الاحتياجات البشرية، بشرط عدم الإضرار بمصالحه. بتعبير آخر، يلبي احتياجاته ذات الأهمية القصوى في المقام الأول، ثم احتياجات الإنسان. على سبيل المثال: يؤمن الطعام للسكان لأن تجويع الشعب يؤدي إلى عرقلة أدائه؛ ويلبي احتياجات الأشخاص السيكولوجية عندما يكون ذلك ممكنًا، لأنه لا يمكن تأدية العمل إذا أصيب الكثير من الأشخاص بالإحباط والحزن أو أصبحوا متمردين. ولأسباب عملية وطيدة، يمارس النظام ضغوطًا مستمرة على أبناء المَجتمع لتشكيل سلوكهم وفقًا لاحتياجاته.

هل يوجد الكثير من النفايات المتراكمة؟ تجتاح الحكومة الجمهور، بالإضافة إلى وسائل الإعلام، النظام التعليمي، أنصار حماية البيئة، وغيرهم، بكتلة من الدعايات ووسائل الترويج حول إعادة التدوير، فهل نحن بحاجة إلى مزيد من الموظفين التقنيين؟ تحث جوقة من الأصوات الأطفال على دراسة العلوم، ولا يتوقف أحد ليتساءل عما إذا كان من غير الإنساني إجبار اليافعين على قضاء معظم وقتهم في دراسة مواضيع يكرهها أغلبيتهم. عندما يُستبعد العاملون المتمكنون من وظائفهم بسبب التقدم التقني ويضطرون إلى «إعادة التدريب»، لا يتساءل أحد إن كان دفعهم بهذه الطريقة مهينًا لهم، لأن الرضوخ للضرورة التقنية بات من المسلمات، لأنه إذا سبقت أهمية الاحتياجات الإنسانية الضرورة التقنية، سينتج

عنها مشاكل اقتصادية، بطالة، عجز، أو ما هو أسوأ. ويحدد مفهوم «الصحة الذهنية» في المجتمع الحديث بمدى تصرف الفرد وفقًا لاحتياجات النظام بدون إظهار علامات الإجهاد والتوتر.

١٢٠- إن الجهود المبذولة لتحقيق الأهداف والاستقلالية في إطار النظام ليست أكثر من مزحة، على سبيل المثال: بدلًا من جمع موظفي كل قسم في قائمة، تجمع الشركة كل موظفيها في قائمة واحدة لمنحهم إحساسًا بالإنجاز ووحدة الهدف. حاولت بعض الشركات منح موظفيها المزيد من الاستقلالية في عملهم، لكن لأسباب عملية لا يمكن القيام بذلك إلا في نطاق محدود للغاية. وفي مختلف الأحوال، لا يُمنح الموظفون أي استقلالية فيما يتعلق بالأهداف النهائية، ولا يمكن تحقيق أهدافهم النابعة من جهودهم «المستقلة»، بل لتحقيق أهداف صاحب العمل، مثل استمرارية الشركة ونموها. ولن تبقى أي شركة إذا سمحت لموظفيها بالتصرف بطريقة أخرى. وعلى نحو مماثل، يجب على العاملين في أي مشروع داخل النظام الاشتراكي، توحيد جهودهم مع أهداف المؤسسة، وإلا فإن المؤسسة لن تستطيع تحقيق أهدافها باعتبارها جزءًا من النظام الحاكم. ولأسباب تقنية بحتة، لا يتمكن معظم الأفراد أو المجموعات الصغيرة من الحصول على قدر كبير من الاستقلالية في المجتمع الصناعي، حتى مالك الشركة الصغيرة لا يتمتع إلا باستقلالية محدودة.

وبصرف النظر عن ضرورة التنظيم الحكومي، يتقيد صاحب العمل بوجوب ملائمة النظام الاقتصادي والتوافق مع متطلباته.

وعند تطوير تقنية جديدة، غالبًا ما يتعين على أصحاب الأعمال التجارية الصغيرة استخدام تلك التقنية، سواءً أرادوا ذلك أم لا، من أجل الحفاظ على قدرتهم التنافسية.

- لا يمكن فصل أجزاء التقنية «السيئة» عن الأجزاء «الجيدة»

١٢١- من الأسباب الأخرى لتقييد الحرية في المجتمع الصناعي هو أن التقنية الحديثة عبارة عن نظام مُوَحَّد تعتمد فيه جميع الأجزاء على بعضها البعض. لا يمكنك إزالة أجزاء التقنية «السيئة» والاحتفاظ فقط بالأجزاء «الجيدة»، على سبيل المثال: يعتمد التقدم في العلوم الطبية على التقدم في مجال الكيمياء، الفيزياء، الأحياء، علوم الكمبيوتر وغيرها من المجالات. وتستلزم المعالجة الطبية المتقدمة معدات باهظة الثمن وتقنية حديثة لا يمكن توفيرها إلا من خلال مجتمع متقدم تقنيًا وثري اقتصاديًا. ومن ثم، لا يمكن إحراز الكثير من التقدم في مجال الطب بدون تطوير النظام التقني ومختلف العلوم المتصلة به.

١٢٢- في حالة الحفاظ على التقدم الطبي دون بقية النظام التكنولوجي، سيجلب ذلك أيضًا بعض الشرور. لنفترض أنه تم اكتشاف علاج لمرض السكري. يستطيع الأفراد الذين لديهم قابلية وراثية لمرض السكري البقاء والتكاثر مثل أي شخص آخر. وسيتوقف الانتقاء الطبيعي ضد المورثات المسببة لمرض السكري وتنتشر هذه المورثات بين مختلف السكان. حدث ذلك مسبقًا إلى درجة معينة، وعلى الرغم من أن مرض السكري غير قابل للشفاء، يمكن

السيطرة عليه باستخدام هرمون الإنسولين. وسيحدث الشيء ذاته مع الأمراض الأخرى التي تتأثر بتدهور السكان الوراثي. يتضمن الحل برنامج تحسين النسل أو الهندسة الوراثية الشاملة للبشر، بحيث لن يكون الإنسان مستقبلًا من صنع الله أو نتاج الطبيعة، (بناءً على الآراء الدينية أو الفلسفية)، بل منتجًا مُصنّعًا.

١٢٣- إذا كنت تعتقد أن الحكومة تتدخل في حياتك أكثر من اللازم في الوقت الحاضر، فلتنتظر حتى تبدأ الحكومة بتنظيم الدستور الوراثي لأطفالك، الذي سوف يشمل حتمًا الهندسة الوراثية البشرية، لأن عواقب الهندسة الوراثية غير المنظمة كارثية.

١٢٤- الرد المعتاد على هذه المخاوف هو الحديث عن «أخلاقيات مهنة الطب». لكن مدونة الأخلاقيات لن تحمي حرية الإنسان في مواجهة التقدم الطبي؛ بل ستزيد الأمور سوءًا. وستكون مدونة الأخلاق المطبقة على الهندسة الوراثية وسيلة لتنظيم الدستور الوراثي للبشر. سوف يصمم شخص ما (ينتمي على الأرجح إلى الطبقة المتوسطة- العليا) رداء الأخلاقيات على مقاسه، ويحكم بـ«أخلاقية» تطبيقات الهندسة الوراثية وعدم جواز غيرها، حتى يفرض قيمه الخاصة على الدستور الوراثي للناس عمومًا. بينما إذا تم اختيار دستور أخلاقي على أساس ديموقراطي، ستفرض الأغلبية قيمها الخاصة على الأقليات التي قد تكون لديها فكرة مختلفة عما يشكل استخدامًا «أخلاقيًا» للهندسة الوراثية.

إن مدونة الأخلاق الوحيدة التي من شأنها حماية الحرية حقًا

هي تلك التي تحظر أي هندسة وراثية للبشر، ومن المؤكد أنه لا يمكن تطبيقها في المجتمع التقني. ولا يمكن لأي قانون يقلل من شأن الهندسة الوراثية أن يصمد طويلًا، لأن القوة الهائلة للتقنية الحيوية لا يمكن مقاومتها، خاصة حين يرى غالبية الناس العديد من تطبيقاتها تنتشر لتقضي على الأمراض البدنية والذهنية، وتعطي الأفراد القدرات التي يحتاجون إليها في عالم اليوم. ومن ثم، سوف يتم استخدام الهندسة الوراثية على نطاق واسع، وبوسائل ملائمة لاحتياجات النظام التقني- الصناعي.

تتجاوز قوة التقنية الاجتماعية طموح الحرية

١٢٥- لا يمكن تقديم تسوية دائمة بين التقنية والحرية، لأن التكنولوجيا بقوتها الاجتماعية تتجاوز باستمرار خطوط الحرية من خلال تنازلات متكررة. تخيل معي حالة جارين، يمتلك كل منهما في البداية مساحة جغرافية متساوية، لكن أحدهما أقوى من الآخر، ويريد الأقوى الاستيلاء على أرض جاره، في حين أن الضعيف يرفض. سيقول له الأقوى: «حسنًا، فلنقدم تنازلات: أعطني نصف ما طلبته». عندئذ، يستسلم الضعيف ويتنازل عن جزء من أرضه لانعدام الاختيارات أمامه. بعد ذلك، سيأتي الجار الأقوى ويطلب قطعة أرض أخرى، وفي كل مرة يتنازل الضعيف عن جزء من أرضه، وعبر سلسلة طويلة من التنازلات، يتخلى تمامًا عنها ويخضع لجاره الأقوى، ويتحول إلى مجرد عامل أو مزارع في أرضه. هذه ماهية الصراع بين التقنية والحرية.

١٢٦- فيما يلي، نوضح لماذا تعد التقنية سلطة اجتماعية أقوى من طموح الحرية:

١٢٧- لا يشكل التقدم التقني ظاهريًا أي تهديد لحرية الإنسان، لكنه غالبًا ما يتحول إلى تهديد فعلي على نحو خطير. على سبيل المثال: كان بمقدور الإنسان البدائي المشي والانتقال حيثما أراد، وعلى وتيرته الخاصة، بدون مراقبة أنظمة المرور، وكان مستقلًا عن أنظمة الدعم التقني. وعقب استخدام السيارات وشتى وسائل النقل، بدا وكأنها تزيد من حرية الإنسان. فهي لم تقيد حرية المشي، ولم يضطر الإنسان إلى امتلاك سيارة إن لم يكن يريدها، ومن اختار شراءها استطاع التنقل بسرعة أكثر ولمسافات أبعد. لكن إدخال وسائل النقل الآلية غيّرت المجتمع بطريقة تقيد حرية الإنسان في التنقل من مكان إلى آخر. فعندما تضاعف عدد السيارات، أصبح من الضروري تنظيم استخدامها. ففي المناطق المكتظة لا يمكن استخدام السيارة بالوتيرة الخاصة، أو الانتقال دون التقيد بتدفق حركة المرور وقوانينها المختلفة، فضلًا عن الالتزام بمتطلبات رخصة القيادة، اختبار السائق، تجديد الرخصة، التأمين، صيانة السلامة، ومدفوعات الوقود الشهرية.

علاوة على ذلك، لم يعد استخدام النقل الآلي اختياريًا. فمنذ إدخالها، تغير تنظيم المدن، ولم تعد الغالبية تقيم على مسافة قريبة من أماكن العمل أو مراكز التسوق والترفيه، وتوجب عليهم امتلاك سيارة، والاعتماد عليها في التنقل، أو استخدام وسائل النقل العام،

وفي هذه الحالة تقل سيطرتهم على حركتهم أكثر من قيادة مركبة خاصة، إلى جانب محدودية حركة المشاة.

في المدينة، يجب التوقف باستمرار لانتظار إشارات المرور المصممة أساسًا لخدمة حركة مرور السيارات. وفي القرية، قد تشكل حركة السيارات خطورة، كما لا يمكن في الوقت ذاته المشي على طول الطريق السريع. (وتوضح هذه النقطة المهمة في حالة النقل الآلي أنه: عند تقديم عنصر تقني جديد كخيار يمكن للفرد أن يقبله أو يرفضه، ولا يعني هذا أن يبقى خيارًا، لأن التقنية الحديثة غالبًا ما تغير المجتمع بطريقة تجعل أفراده مضطرين في نهاية المطاف لاستخدامه).

١٢٨- في حين يضيق التقدم التقني نطاق الحرية باستمرار، يبدو أن كل تقدم تقني مرغوب. لا يستطيع المرء الجدال ضد الاستعانة بالكهرباء، السباكة الداخلية، الاتصالات الفضائية السريعة... أو ضد تطورات تقنية لا تحصى ووسمت المجتمع بالحداثة؟ لم نستطع مقاومة إدخال الهاتف، على سبيل المثال، الذي أضاف العديد من المزايا للحياة اليومية وبلا مساوئ. مع ذلك، وكما أوضحنا في الفقرات ٥٩-٧٦، هيأت مختلف جوانب التقدم التقني عالمًا لم يعد فيه مصير الإنسان العادي في يده أو في أيدي جيرانه وأصدقائه، بل في أيدي سياسيين، مدراء تنفيذيين في شركات، تقنيين مجهولين وبعيدين عن محيطه، وبيروقراطيين (موظفين حكوميين) لا يمتلك القدرة للتأثير على قراراتهم كفرد. وتستمر العملية على نفس النَّسق والأسلوب مستقبلًا. لن يقاوم إدخال تقنية وراثية للقضاء على

مرض وراثي سوى قلة من الناس، لأن أضرار استخدامها غير واضحة وتمنع الكثير من المعاناة. مع ذلك، ينجم عن مضاعفة التحسينات الوراثية تحويل الإنسان إلى منتج هندسي بدلًا من اعتباره صنيعة الله وإبداعًا إلهيًا.

١٢٩- من الأسباب الأخرى التي تجعل التقنية قوة اجتماعية سلطوية، هو أن التقدم التكنولوجي يسير في اتجاه واحد في سياق مجتمعي معين، ولا يمكن عكسه على الإطلاق. وبمجرد إدخال الابتكار التقني، يعتمد عليه السكان، بحيث لا يمكنهم الاستغناء عنه، ما لم يتم استبداله بابتكار آخر أكثر تقدمًا. ولا يعتمد الأفراد على عنصر جديد من التقنية فحسب، بل النظام بأسره. تخيل ماذا سيحدث لأي نظام حاكم معاصر إذا تم القضاء على أجهزة الكمبيوتر أو تعطيلها. وبالتالي، يتحرك النظام في اتجاه واحد فقط، نحو مضاعفة استخدام التكنولوجيا. في المقابل، تفرض التقنية الكثير من القيود على حرية الإنسان التي تتراجع إلى الوراء يومًا بعد آخر، لكن التكنولوجيا لا يمكنها أن تخطو خطوة إلى الوراء، بدون الإطاحة بالنظام التقني بأكمله.

١٣٠- تتقدم التكنولوجيا بسرعة عالية وتهدد نطاق الحرية في مجالات مختلفة في آنٍ معًا: الازدحام، القواعد والأنظمة، تنامي اعتماد الأفراد على المنظمات الكبرى، الدعاية، التقنيات السيكولوجية، الهندسة الوراثية، اجتياح خصوصية الأفراد من خلال أجهزة المراقبة والكمبيوتر... إلخ. لذا، يقتضي كبح أي تهديد من تهديدات الحرية

صراعًا اجتماعيًا طويل الأمد ومعقدًا. ويواجه حماة الحرية عددًا لا نهائيًا من الهجمات المتوالية المتطورة والسريعة، حتى يفقدون المقاومة ولا يكترثون بالنتائج. كما أن مكافحة التهديدات بشكل منفصل عبثي وبلا جدوى. ولا يمكن تحقيق النجاح إلا بمكافحة النظام التقني بأسره؛ أي القيام بثورة وعدم الاكتفاء بالإصلاح.

١٣١- ينزع التقنيون (نستخدم هذا المصطلح بمعناه الواسع لوصف الذين يؤدون مهمة متخصصة تستوجب التدريب) إلى المشاركة في عملهم (نشاطهم البديل). وفي حالة نشوب صراع بين عملهم التقني وحريتهم، يتخذون قرار لصالح عملهم التقني، كما هو الحال لدى العلماء، المثقفين، المجموعات الإنسانية، ومنظمات الحماية، ولا يتردد هؤلاء في استخدام الدعاية أو التقنيات السيكولوجية الأخرى لمساعدتهم على تحقيق غاياتهم الجديرة بالثناء. وعندما تجد الشركات والوكالات الحكومية أنه بالإمكان تحقيق فائدة منهم، تستعين بهم لجمع معلومات عن الأفراد بغض النظر عن الاعتداء على خصوصيتهم.

تتعرض هيئات إنفاذ القانون بشكل متكرر لمضايقات المشتبه بانتهاكهم الحقوق الدستورية الذين غالبًا ما يظهرون براءتهم لأنهم يفعلون كل ما يمكنهم القيام به قانونيًا، وأحيانًا بشكل غير قانوني، لتقييد هذه الحقوق أو التحايل عليها. يؤمن معظم المثقفين والموظفين الحكوميين وحماة القانون بالحرية والخصوصية والحقوق الدستورية، لكن عندما تتعارض الحقوق مع عملهم أو حين

يكونون في حالة صراع معها، يعتبرون عملهم أكثر أهمية من حماية حقوق الآخرين واختراق خصوصيتهم.

١٣٢- من المعروف أن الأفراد عمومًا يعملون بشكل أفضل وأكثر ثباتًا حين يسعون للحصول على مكافأة أكثر مما يفعلون لدى تجنبهم عقاباً أو نتيجة سلبية. وتعد المكافآت التي يحصل عليها العلماء والتقنيون من خلال عملهم، حافزهم الرئيسي. في حين أن المعارضين لاجتياح التقنية لحرية الإنسان يحاولون تفادي أي نتائج سلبية، وبالتالي، يعمل قليل منهم بهمة وإصرار في هذه المهمة غير المشجعة. إذا حقق الإصلاحيون إنجازاً مؤثراً ضد تقلص نطاق الحرية بسبب التقدم التقني، غالبًا ما يميل معظمهم إلى الاسترخاء ويحولون اهتماماتهم إلى أنشطة أخرى أكثر قبولًا. وبينما يستمر العلماء بالانشغال في مختبراتهم، تتقدم التكنولوجيا لإيجاد طرق أخرى وممارسة المزيد من السيطرة على الأفراد وحصر اعتمادهم على النظام.

١٣٣- لا تستطيع أي أنظمة وإجراءات اجتماعية، سواءً كانت قوانين، مؤسسات، عادات وتقاليد، أو قواعد أخلاقية، توفير حماية دائمة من التقنية. ويبرهن التاريخ على أن جميع التنظيمات الاجتماعية مؤقتة؛ تتغير أو تنهار في نهاية المطاف، ولكن التقدم التقني مستمر في سياق الحضارة المحددة. لنفترض إمكانية التوصل إلى بعض الترتيبات الاجتماعية التي تمنع تطبيق الهندسة الوراثية على الإنسان أو تعرقل تطبيقها بطريقة مهددة لحرية الإنسان وكرامته.

سوف تنتظر التكنولوجيا انهيار هذه الترتيبات الاجتماعية، عاجلًا أم آجلًا، وقد يكون في وقت أقرب مما نتصور، استنادًا إلى وتيرة التغيير في المجتمع الحديث. ثم تغزو الهندسة الوراثية مجال الحرية، حتى يغدو اجتياحها غير قابل للتراجع بدون انهيار الحضارة التقنية ذاتها. ينبغي تبديد أي أوهام وتصورات حول تحقيق إنجاز دائم عبر الترتيبات الاجتماعية بما يحدث حاليًا مع التشريعات البيئية. قبل بضع سنوات، بدا أن ثمة حواجز قانونية آمنة تمنع على الأقل بعض أسوأ أشكال التدهور البيئي، لكن هذه الحواجز بدأت بالتلاشي والاضمحلال بفعل العواصف السياسية.

١٣٤- بناءً على الأسباب السالفة، تعد التقنية قوة اجتماعية سلطوية ومتجاوزة لطموح الحرية. بيد أن هذا الإقرار يتطلب تعديلاً مهماً: أثناء العقود القليلة القادمة، سيعاني النظام الصناعي - التقني من ضغوط شديدة بسبب المشاكل الاقتصادية والبيئية، وبشكل خاص بسبب مشاكل السلوك البشري، مثل: الاغتراب، التمرد، العدوان، وصعوبات اجتماعية وسيكولوجية متنوعة. وقد تؤدي هذه الضغوط إلى انهيار النظام، أو إضعافه إلى درجة كافية بحيث تصبح الثورة ضده ممكنة. وإذا حدثت هذه الثورة ونجحت، في تلك اللحظة فقط، سيثبت طموح الحرية بأنه أقوى من التقنية ويجتاز قيودها.

١٣٥- في الفقرة رقم ١٢٥، استخدمنا مقارنة الجار الضعيف الذي تركه جاره الأقوى معدمًا، واستولى على أراضيه بإجباره على

سلسلة من التنازلات. لكن لنفترض الآن أن الجار الأقوى أصابه المرض والوهن، وصار غير قادر على الدفاع عن نفسه. يستطيع الجار الضعيف أن يجبره على استعادة أرضه، أو يقتله. وإذا سمح لجاره الأقوى بالنجاة وأجبره فقط على استعادة الأرض، فهو أحمق لأنه عندما يتعافى جاره الأقوى سيعود ويستولي على أرضه مرة أخرى. لذا، فإن الحل البديل المنطقي أمام الضعيف هو قتل جاره الأقوى للعيش بسلام. وعلى نحو مشابه، عندما يمرض النظام الصناعي، يجب تدميره، لأنه إذا تنازلنا وتركناه يشفى من مرضه، سيقضي على حريتنا ويمحو أثرنا في نهاية القصة.

المشاكل الاجتماعية البديهية عسيرة الحل

١٣٦- إذا كان بعض الأفراد ما يزالون يتصورون إمكانية إصلاح النظام بوسائل تحمي الحرية من مخاطر التكنولوجيا، فدعهم يفكرون كيف تعثر مجتمعنا وأخفق أحياناً في اشتغاله على حل مشكلات اجتماعية أخرى أكثر بساطة وأقل تعقيداً، كما فشل النظام في الحد من التدهور البيئي، والفساد السياسي، والاتجار بالمخدرات، والعنف المنزلي.

١٣٧- وضوح نزاع القيم في المشاكل البيئية، على سبيل المثال: النفعية الاقتصادية إزاء حماية وادخار الموارد الطبيعية للأجيال القادمة. وفي هذه المسألة، لا يصدر من المسؤولين سوى الإسهاب في التصريحات الفارغة، ومحاولات التعتيم، دون خطة عمل واضحة ومتسقة، وتراكم المشاكل البيئية التي سيتوجب على

الأجيال القادمة التعايش معها. وتتمثل محاولات الحل في النزاعات والتنازلات بين الفصائل المختلفة، التي تتداول الصعود والهبوط والمكتسبات والخسائر. ويتغير اتجاه الصراع استنادًا إلى تحولات تيارات الرأي العام، ما يفقده الاتزان وسرعة إيجاد حل في الوقت الملائم. فنادرًا ما تحل المشاكل الاجتماعية الأساسية من خلال خطة منطقية وشاملة، فهي إن (حلّت نهائياً) أو أهملت فهذا يحدث عبر تنافس مجموعات مختلفة لتحقيق مصالحها القريبة الخاصة وبطريقة عشوائية واعتباطية، من خلال اتفاقات تؤدي لأوضاع مستقرة قليلاً أو كثيراً إلى أجل غير مسمى أو إلى أن يتم التوصل لتسوية نهائية. تثير المبادئ المصاغة في الفقرات ١٠٠-١٠٦، الشكوك حول فاعلية التخطيط الاجتماعي المنطقي طويل الأجل وإمكانية نجاحه.

١٣٨- ومن ثم، لا تقدم المجتمعات سوى قدرة محدودة للغاية لحل مشاكل اجتماعية بسيطة نسبيًا. فكيف إذن يمكن حل المشكلة الأصعب والأكثر تعقيدًا المتمثلة في التوءمة بين الحرية والتكنولوجيا؟ تقدم التقنية مميزات وفوائد مادية أساسية، في حين أن الحرية فكرة تجريدية تحمل معاني شتى لأفراد مختلفين، ويمكن التعتيم على غاياتها وفقدانها بسهولة عبر أساليب الدعاية والتصورات المتفاوتة.

١٣٩- ثمة اختلاف جدير بالاهتمام: ثمة إمكانية لتسوية المشاكل البيئية (مثلاً) من خلال خطة منطقية - شاملة، غير أن ذلك لن يحدث إلا من أجل مصلحة النظام على المدى البعيد. لكن ليس من مصلحة النظام حماية الحريات أو استقلالية المجموعات الصغيرة، بل تقتضي مصلحته السيطرة على السلوك البشري إلى

أقصى حد ممكن. قد تضطر الاعتبارات العملية النظام إلى اتباع نهج واعٍ ومتزن لحل المشاكل البيئية، وتنظيم السلوك البشري عن كثب، على حدٍ سواء، باستخدام وسائل غير مباشرة تخفي انتهاكات النظام للحريات. هذه ليست وجهة نظري الخاصة فحسب، حيث شدد علماء اجتماع مرموقون، مثل جيمس ك. ويلسون، على أهمية التنشئة الاجتماعية بأساليب فعالة.

الثورة أسهل من الإصلاح

١٤٠- نأمل أن نكون قد أقنعنا القارئ بأن النظام لا يمكن إصلاحه عبر التوءمة بين الحرية والتقنية. ويكمن سبيل النجاة في الاستغناء عن النظام الصناعي - التقني، الذي يتضمن القيام بثورة، التي لا تستوجب بالضرورة انتفاضة مسلحة، بل تغيير جذري وأساسي في طبيعة المجتمع.

١٤١- يفترض الناس أن الثورة أكثر صعوبة من إصلاح المجتمع لأنها تنطوي على تغييرات أكبر من عمليات الإصلاح. لكن في ظل ظروف معينة، تعد الثورة أسهل بكثير من الإصلاح، لأن الحركة الثورية تحث على قوة الالتزام التي لا تستدعيها حركات الإصلاح ولا تقدم سوى حل لمشكلة اجتماعية محددة. تقتلع الثورات مشاكل المجتمع بهجمة واحدة، تنشئ عالماً جديداً «مثالياً» يخوض فيه الناس تحديات كثيرة ويقدمون تضحيات جليلة. ومن ثم، سيكون من الأسهل الإطاحة بحكم النظام التقني بدلًا من وضع قيود فاعلة ودائمة على تطوير أو تطبيق أي جزء من علوم التقنية، مثل الهندسة

الوراثية. فمثلا لن يخصص كثير من الناس جهودهم بشغف لفرض قيود على الهندسة الوراثية ومحاصرتها، لكن في الوقت المناسب، ستكرس أعداد غفيرة أوقاتها وطاقاتها المفعمة بالحيوية للثورة على النظام التقني - الصناعي. فكما أشرنا في الفقرة رقم ١٣٢، يهدف الإصلاحيون الساعون إلى الحد من جوانب معينة من التكنولوجيا على تجنب التوصل إلى نتيجة سلبية. بينما يهدف الثوار إلى قطف الثمار والحصول على مكافأة قَيِّمَة بتحقيق رؤيتهم الثائرة، لذا فهم يعملون بوتيرة ثابتة وهمة عالية أكثر من الإصلاحيين.

١٤٢- تقيد جهود الإصلاحيين بالخوف من العواقب المؤلمة فيما إذا ابتعدت التغييرات عن مسارها المحدد. وإذ هيمنت فكرة الثورة على مجتمع ما، يستعد الناس لمواجهة مشاق ومتاعب لامحدودة من أجل إنجاح ثورتهم، ويتجلى ذلك في الثورتين الفرنسية والروسية. وقد يكون ذلك بسبب التزام أقلية من السكان بقيادة الثورة وتحقيق أهدافها النهائية، لكن هذه الأقلية كانت فعالة ومؤثرة بدرجة كافية لتصبح القوة المهيمنة في المجتمع. سنتحدث أكثر عن الثورة في الفقرات ١٨٠-٢٠٥.

إحكام السيطرة على السلوك البشري

١٤٣- منذ بدء الحضارة الإنسانية، مارست المجتمعات المنظمة ضغوطاً على أبنائها من أجل كفاءة المنظمة الاجتماعية. واختلفت أنواع الضغوط من مجتمع إلى آخر. كانت بعض الضغوطات مادية، مثل: النظام الغذائي الرديء، العمل المفرط، والتلوث البيئي،

وكان بعضها الآخر سيكولوجياً، مثل: الضجيج، الازدحام، وإفراغ السلوك البشري في قوالب اجتماعية محددة. في الماضي، كانت الطبيعة البشرية مستقرة تقريبًا، أو لم تتغير إلا ضمن حدود معينة. لذا، لم تتحرك الشعوب إلا داخل إطار محدد. وإذا تجاوز الإنسان هذه الحدود، تظهر السلوكيات الخاطئة، مثل: العصيان، الجريمة، الفساد، التملص من العمل، الإحباط والابتئاس والمشاكل الذهنية الأخرى، ارتفاع معدل الوفيات، وانخفاض معدل المواليد، بحيث ينهار المجتمع أو يتسم أداؤه باللافعالية. ومن ثم، يُستنزف المجتمع تدريجيًا أو حَثِيثًا بالاحتلال أو حرب إنهاك، أو يتغير بالتطور إلى أشكال مجتمعية أكثر كفاءة.

١٤٤- تأطرت الطبيعة البشرية في العصور البدائية وقيدت تنمية المجتمعات. وفي الزمن الحاضر، طورت التكنولوجيا الحديثة أساليب تحوير الأفراد.

١٤٥- تخيلوا مجتمعاً يهيّئ الظروف التي تجعل السكان يكابدون الحزن والشقاء وتتنامى فيه معاناتهم، ثم يمنحهم عقاقير لتفادي التعاسة، هل هذا خيال علمي؟ إنه يحدث بالفعل في مجتمعنا. ازدادت معدلات الإحباط والاكتئاب السريري في العقود الأخيرة، وقد يرجع ذلك إلى تعطيل عملية السلطة، كما هو موضح في الفقرات ٥٩-٧٦. وحتى إذا كنا مخطئين، تُعزى نسبة الاكتئاب المتنامية إلى بعض الظروف المجتمعية الآنية. وبدلًا من معالجة هذه الظروف السيئة، يوفر المجتمع الحديث أدوية مضادة للاكتئاب التي تعد

وسيلة لتعديل حالة الفرد المزاجية وتمكينه من تحمل المعاناة والبؤس. قد تكون الكآبة ذات منشأ وراثي بحت، بيد أننا نشير في هذا البحث إلى الحالات التي تؤثر فيها البيئة بشكل أساسي.

١٤٦- لا يعتبر تأثير العقاقير الطبية على مزاج الأفراد سوى مثال أولي على أساليب التحكم الحديثة في السلوك البشري والمتطورة في المجتمع الحديث.

١٤٧- ثانيًا، تقنيات المراقبة: تستخدم كاميرات الفيديو المخفية في معظم المتاجر ومراكز التسوق وأماكن أخرى، فضلًا عن استخدام أجهزة الكمبيوتر لجمع ومعالجة كميات هائلة من المعلومات حول الأفراد، وتساهم هذه المعلومات في فعالية الإكراه البدني، وتنفيذ القانون. ثالثًا: الأساليب الدعائية، التي تقدمها وسائل الاتصال الجماهيري، وتطورت تقنيات الدعاية الخاصة باكتساح الانتخابات، بيع السلع والبضائع، والتأثير على الرأي العام. رابعًا: صناعة الترفيه التي تعد أداة سيكولوجية مهمة لتحقيق أهداف النظام، وتفريغ رغبات الجنس والعنف. توفر وسائل الترفيه للإنسان المعاصر، مثل التلفزيون وأشرطة الفيديو، وسيلة أساسية للهروب من مشاكل الحياة اليومية، والتخلص من الإجهاد، التوتر، القلق، الإحباط، والسخط. بينما كانت الشعوب البدائية تكتفي بالجلوس لساعات عقب الانتهاء من الواجبات اليومية وتتعايش بسلام. وينشغل الأفراد في المجتمع الحديث باستمرار إما بالعمل أو الترفيه، وإلا فإنهم سيشعرون بالضجر وعدم الارتياح وسرعة الانفعال.

١٤٨- خامسًا: لم يعد التعليم مقتصرًا على ضرب الطفل على مؤخرته عندما لا يستذكر دروسه والتربيت على رأسه بلطف إذا حفظها عن ظهر قلب. لقد أصبح تقنية علمية للتحكم في تنمية الطفل وكيفية تنشئته. على سبيل المثال: حققت مراكز سيلفان التعليمية نجاحًا باهرًا في تحفيز الأطفال على الدراسة، وتستخدم المدارس التقليدية تقنيات سيكولوجية لحث الطلاب على إحراز النجاح. بالإضافة إلى ذلك، تصمم تقنيات «مهارات تربية الأطفال» لتدريس أولياء الأمور كيفية تلقين أبنائهم قيم النظام الأساسية والتصرف بطرق ملائمة للنظام. توضع برامج «الصحة الذهنية»، وتقنيات «التدخل»، والعلاج السيكولوجي، ظاهريًا لمنفعة الأفراد، وتكون عمليًا بمثابة عوامل تحفيزية للإقناع والتفكير والتصرف كما يتطلب النظام. وعندما تصطدم مواقف الفرد وسلوكه بمواقف النظام، يتنازع مع سلطة أقوى منه ولا يستطيع التغلب عليها أو الإفلات منها، وقد يعاني من التوتر والإحباط والهزيمة. بينما إذا سلك الفرد طريق النظام وأذعن لأساليب تفكيره، ينسجم النظام مع مصالح الفرد.

ترفض معظم الثقافات، إن لم يكن كلها، إساءة معاملة الأطفال بأشكالها الساطعة والفجّة. ويفزع الكثيرون من تعذيب الأطفال، لأسباب تافهة أو بدون أسباب. لكن العديد من علماء النفس يفسرون مفهوم الإساءة بشكل أوسع. هل يعد ضرب الأرداف، عندما يستخدم كأسلوب تأديبي صائب ومتسق، من أشكال سوء المعاملة؟ تحسم المسألة بناءً على السلوك الناتج عنه، هل يتلاءم مع

أو ضد النظام المجتمعي. من الناحية العملية، تشمل كلمة «إساءة» أساليب تربية الطفل التي تسفر عن سلوك مزعج للنظام. وإذا تجاوزنا الوقاية من الوحشية وهمجية السلوك العقيم، تخصص برامج حماية الأطفال من سوء المعاملة للسيطرة على السلوك البشري بالنيابة عن النظام.

١٤٩- من المفترض استمرار البحث عن وسائل ناجعة وتقنيات سيكولوجية لضبط السلوك البشري على إيقاع محدد. لا يكتفي النظام بالتقنيات السيكولوجية لتشكيل المجتمع التقني كيفما يشاء، ويستعين بالأساليب البيولوجية، مثل استخدام العقاقير الطبية. وقد يوفر علم الأعصاب طرقًا أخرى لتغيير الفكر البشري. كذلك بدأت الهندسة الوراثية بالظهور في شكل «علاج المورثات»، الذي قد يستخدم مستقبلًا لمداواة أجزاء الجسد التي تؤثر على الأداء الذهني.

١٥٠- كما ذكرنا في الفقرة رقم ١٣٤، يتوقع دخول المجتمع الصناعي في فترة من الإجهاد الشديد الناتج جزئيًا عن مشاكل السلوك البشري والمشاكل الاقتصادية والبيئية. وتنتج نسبة كبيرة من مشاكل النظام الاقتصادية والبيئية عن سلوك الإنسان، مثل: السلوك الناتج عن الاغتراب والعزلة، تدني احترام الذات، الاكتئاب، العدائية، التمرد، الأطفال غير الملتحقين بمدارس، العصابات الشبابية، الاستخدام غير القانوني للعقاقير، هتك الأعراض، سوء معاملة الأطفال، الجنس غير الآمن، حمل المراهقات، النمو السكاني،

الفساد السياسي، كراهية الأعراق والجنسيات الأخرى، التنافس العرقي، الصراع الأيديولوجي العنيف (مثل تأييد الإجهاض أو معارضته)، التطرف السياسي، الإرهاب، الأعمال التخريبية والتدميرية، المجموعات المناهضة للحكومة، وجماعات الكراهية. كل هذه تهدد بقاء النظام، وتجعله يلجأ إلى الوسائل العملية للسيطرة على السلوك البشري.

١٥١- لا يعد الاضطراب الاجتماعي المعاصر مصادفة محضة، بل نتيجة لظروف معيشية فرضها النظام التقني على الأفراد، وهذه الظروف من أهم أسباب تعطيل عملية السلطة. إذا نجحت الأنظمة في فرض سيطرة كافية على السلوك البشري لضمان بقائها، فقد تجاوزت الحد الفاصل لانحدار تاريخ البشرية. في المجتمعات الأولية، فرضت حدود الاحتمال والمعاناة الإنسانية قيودًا على تنمية المجتمعات (كما أوضحنا في الفقرتين ١٤٣، ١٤٤)، وتجاوز المجتمع الصناعي - التقني هذه الحدود من خلال تغيير السلوك البشري بالأساليب السيكولوجية والبيولوجية. وفي المستقبل، لن تتغير الأنظمة الاجتماعية لملاءمة الاحتياجات الإنسانية، إنما سيتغير الإنسان ليلائم احتياجات النظام.

١٥٢- بصفة عامة، لا تدمج السيطرة التقنية على السلوك البشري بأهداف استبدادية شمولية أو من خلال رغبة واعية لتقييد حرية الإنسان. فكل خطوة جديدة لتأكيد السيطرة على العقل البشري ستعتبر استجابة واعية لمشاكل المجتمع. مثل علاج إدمان

الكحول، الحد من معدل الجريمة أو حث الشباب على دراسة العلوم والهندسة. وفي كثير من الحالات، سيكون ثمة مبرر إنساني، على سبيل المثال: عندما يصف الطبيب النفساني دواء مضاد للاكتئاب، فإن الهدف الظاهر هو مصلحة المصاب بداء الاكتئاب، وسيكون من غير الإنساني حجب الدواء عن شخص يحتاج إليه. وعندما يرسل الآباء أطفالهم إلى مراكز سيلفان التعليمية للتلاعب بهم بمبرر تحفيزهم للتفوق في دراستهم، يفعلون ذلك بدافع الاهتمام بأبنائهم ورعايتهم. قد لا يقتنع بعض هؤلاء الآباء بضرورة خضوع أبنائهم لتدريب متخصص من أجل الحصول على وظيفة وأنه لا ينبغي تهيئة أدمغة أبنائهم لتصبح أجهزة كمبيوتر ذكية، لكن ماذا باستطاعتهم فعله؟ لا يمكنهم تغيير المجتمع، وقد يصبح طفلهم مستقبلًا عاطلاً عن العمل إذا لم يكتسب مهارات معينة، لذا أرسلوه إلى سيلفان.

١٥٣- لن تطبق السيطرة على السلوك البشري بقرار أو قانون صادر عن النظام، بل من خلال عملية التطور الاجتماعي المتسارع، التي لن يتمكن المجتمع من مقاومتها، لأن كل تقدم يعتبر مفيداً في ذاته، وسيخفي الجوانب السلبية، فسيبدو الشر المصاحب لعملية التقدم مفيداً، أو سيبدو أنه أقل من ذلك الشر الناجم عن إيقاف عجلة التقدم (انظر الفقرة رقم ١٢٧).

تستخدم الدعاية للعديد من الأهداف الجيدة، كالحد من إساءة معاملة الأطفال، أو الكراهية العرقية. كذلك تعتبر التربية الجنسية مفيدة، لكن تأثيرها بقدر فائدته، فإنه قد يؤدي إلى سلوكيات جنسية

خارج نطاق الأسرة، باعتباره يندرج ضمن نهج الدوله المسؤولة عن صياغة أنظمة المدارس العامة.

١٥٤- لنفترض اكتشاف خاصية بيولوجية تزيد من احتمال إجرامية الأطفال، ولنفترض إمكانية إزالة هذه الخاصية بعلاج المورثات. لن يتردد معظم الآباء الذين لدى أطفالهم هذه الصفة في إخضاعهم للعلاج، وسيبدو من غير الإنساني القيام بخلاف ذلك، لأن حياة الطفل ستكون بائسة إذا ما نشأ ليصبح مجرمًا. لكن معدلات الجريمة في المجتمعات البدائية منخفضة مقارنة بمجتمعنا، رغم أنها لا تملك أساليب التقنية الحديثة في تربية الأطفال، أو أنظمة العقاب الوحشية. وبما أنه لا يوجد سبب للاعتقاد أن الإنسان المعاصر لديه ميول فطرية عدائية أكثر من ذلك البدائي، فإن معدل الجريمة المرتفع لابد أن يكون ناتجاً عن ضغوط الظروف الحديثة المفروضة على المجتمعات، التي لا يتأقلم الكثيرون معها. وبالتالي، يعد علاج إزالة النزعات الإجرامية المحتملة جزءاً من إعادة هندسة الأفراد للتلاؤم مع متطلبات النظام.

١٥٥- يميل المجتمع الحديث إلى وصم أي إنسان يفكر أو يتصرف خارج صندوق النظام بـ«المريض»، وهذا الأمر قابل للتصديق لأن معارضة النظام تؤدي إلى معاناة الفرد ومشاكل للنظام. ويعتبر التلاعب بالفرد لضبط إيقاعه مع النظام «علاجاً» لـ«مرض».

١٥٦- في الفقرة رقم ١٢٧، أوضحنا أن استخدام تقنية جديدة

يظهر في البداية أنه اختياري، لكنه سرعان ما يتحول إلى ضرورة، لأن التقنية الحديثة تغير المجتمع بطريقة تجعل من الصعب أو المستحيل تجاهلها أو عدم استخدامها. وينطبق ذلك أيضًا على تقنية السلوك البشري. وفي مجتمع يخضع فيه معظم الأطفال لبرنامج التفوق الدراسي، يُجبر الوالدان على ضمّ ابنهما لهذا البرنامج، لأنه إذا أهمله واعتقد بعدم أهميته، سيُعتبر ابنهم جاهلاً، وقد يصبح غير مؤهل لأداء وظيفة ما.

أو لنفترض اكتشاف علاج بيولوجي دون آثار جانبية ضارة، يقلل من الضغط النفسي الذي يعاني منه الكثيرون في مجتمعنا، فإذا ما اختار العديد من الناس الخضوع لهذا العلاج، سينخفض مستوى الإجهاد العام في المجتمع، وسيتمكن عندها النظام من زيادة الأعباء والضغوط التي ستنتج توترات، فتخضع أعداد أخرى للعلاج، وهكذا، وفي النهاية، فلن يتبقى سوى القليل من الذين لن يخضعوا للعلاج.

يبدو أن شيئًا من هذا القبيل قد حدث بالفعل عبر أحد أهم الأدوات السيكولوجية في المجتمع للحد من الإجهاد أو التخلص منه بشكل مؤقت، أي الترفيه الجماهيري (انظر الفقرة رقم ١٤٧). يعد الترفيه الجماهيري أمرًا «اختياريًا»: لا يوجد قانون يفرض علينا مشاهدة التلفزيون والاستماع إلى المذياع وقراءة المجلات. رغم ذلك، يعتبر وسيلة لتقليص التوتر، ولذا، يحرص الكثيرون على متابعته. قد يشتكي الجميع من رداءة برامج التلفزيون وضعف

محتواها، ومع ذلك، يحرصون على مشاهدتها. تحررت قلة من الناس من هذه العادة التلفزيونية، وسيكون انسجامهم استثنائياً بدون استخدام أي شكل من أشكال الترفيه الجماهيري. وفي العقود الأخيرة، لم يعد معظم الناس يتناغمون مع وسائل الترفيه سوى تلك التي يبتكرها كل مجتمع محلي لسكانه. وبدون صناعة الترفيه، لم يكن بمقدور النظام الإفلات من عواقب القيود والضغوط التي يفرضها على المجتمع.

١٥٧- إذا افترضنا استمرارية المجتمع الصناعي، فمن المرجح أن تقترب التقنية من السيطرة التامة على السلوك البشري. وبغض النظر عن الشكوك المنطقية، ثبت أن الفكر والسلوك البشري لهما أساس بيولوجي. كما برهنت التجارب على إمكانية إثارة الإحساس بالجوع، الابتهاج، الغضب، والخوف عبر التنشيط والتحفيز الكهربائي لأجزاء معينة في الدماغ. يمكن محو الذكريات بإتلاف أجزاء من الدماغ أو استعادتها بالتحفيز الكهربائي. وتؤثر بعض الأدوية على مزاج المرء أو ينتج عنها هذيان وهلاوس. قد تكون الروح البشرية اللامادية موجودة أو غير موجودة، لكن إن كانت موجودة حقاً فإنها أضعف من الآليات البيولوجية للسلوك البشري، وإلا لما تمكن الباحثون من التلاعب بالمشاعر والسلوك البشرية بسهولة باستخدام الأدوية والتيارات الكهربائية.

١٥٨- المفروض أن لا يكون أمراً عملياً أن تغرز أقطاب كهربائية في رؤوس كل الناس لتتحكم السلطات في إراداتهم. لكن

إمكانية التدخل البيولوجي لتغيير الأفكار والمشاعر الإنسانية تبين أن مشكلة السيطرة على السلوك البشري هي تقنية بشكل أساسي. مشكلة الخلايا العصبية، الهرمونات، الجزيئات المعقدة، مشكلة من هذا النوع في متناول الهجوم العلمي. وبالنظر إلى السجل المتميز لمجتمعنا في حل المشاكل التقنية، يمكن إحراز تقدم كبير في مجال السيطرة على السلوك البشري.

١٥٩- هل تمنع المقاومة العامة استخدام السيطرة التقنية على السلوك البشري؟ قد يحدث ذلك إذا حاول النظام إدراجها دفعة واحدة وفي فترة زمنية قصيرة. لكن بما أنه سيتم إدماج التحكم التقني من خلال سلسلة طويلة من المحاولات، فلن تكون هناك مقاومة عامة مؤثرة وفاعلة، (انظر الفقرات رقم ١٢٧، ١٣٢، و١٥٣).

١٦٠- بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون أن كل ما ذكرناه يبدو وكأنه خيال علمي، نؤكد على أن الخيال العلمي السابق يتجسد في أحداث الواقع. لقد غيرت الثورة الصناعية بيئة الإنسان ونمط حياته جذريًا، ومن المتوقع تغيير جوهر الإنسان مع تنامي تطبيق التكنولوجيا على جسده وتفكيره.

الأعراق البشرية في ملتقى طرق

١٦١- يمكن تطوير سلسلة من التقنيات السيكولوجية أو البيولوجية في المختبرات للتلاعب بالسلوك البشري وأخرى لدمج هذه التقنيات في نظام اجتماعي فعال، والأخيرة هي الأكثر

صعوبة، وفي حين يتم تطوير تقنيات علم النفس التربوي في مختبرات المدارس، ليس بالضرورة تطبيقها بشكل فعال عبر النظام التعليمي، ونعلم جيدًا أوضاع العديد من المدارس. ينشغل المعلمون بإبعاد السكاكين والمسدسات عن متناول الطلاب لإخضاعهم لأحدث التقنيات وتحويلهم إلى أجهزة كمبيوتر ذكية. ورغم أوجه التقدم التقني المتعلقة بالسلوك البشري، لم ينجح النظام حتى الآن بشكل مؤثر ولافت للانتباه في السيطرة على سلوك الأفراد، إنه استطاع الهيمنة على سلوك «البرجوازيين». لكن هناك أعداد متنامية ومتباينة من المتمردين ضد النظام، مثل: أنصار الرعاية الاجتماعية، مجموعات الشباب، الطوائف التقليدية، عُبَّاد الشيطان، النازيين، حماة البيئة المتشددين، والمجموعات المسلحة (الميليشيات).

١٦٢- ينهمك النظام حاليًا في نزاع يائس للتغلب على مشاكل معينة تهدد بقاءه، من بينها مشاكل السلوك البشري الأكثر أهمية. وإذا نجح النظام في السيطرة على السلوك البشري بسرعة كافية، فمن المحتمل أن يستمر لفترة أطول، وبخلاف ذلك، سينهار. وقد تحل هذه القضية بعد مرور عدة عقود في مدة تتراوح بين ٤٠ و١٠٠ عام.

١٦٣- في حالة استمرارية النظام ونجاته من أزمة العقود القادمة، يفترض أنه استطاع حل أو السيطرة على مشاكله الرئيسية، لا سيما فيما يختص بـ«التواصل الاجتماعي»؛ مما يجعل الأفراد مطيعين للأنظمة ولا يشكل سلوكهم أي تهديد للنظام. ولا يبدو أن ثمة

عقبات تعترض سبيل تطوير التقنية، ومن المفترض أن يتقدم نحو استنتاجه المنطقي، الذي يعني السيطرة التامة على الإنسان والكائنات الحية الأخرى. قد يصبح النظام منظمة موحدة ومتجانسة، أو مجزأ إلى درجة معينة، ويتكون من منظمات متعددة متعايشة في إطار التعاون والمنافسة، كما هو الحال لدى الحكومات والشركات وبقية المؤسسات الضخمة. وقد يتلاشى مفهوم الحرية الإنسانية، بسبب عدم قدرة الأفراد والمجموعات الصغيرة على مواجهة المنظمات الكبرى المدعومة بقوة التقنية الفائقة وترسانة الأدوات السيكولوجية والبيولوجية المتقدمة المهيأة للتلاعب بالمواقف والسلوكيات، فضلًا عن أدوات المراقبة والعنف البدني. لن يتمتع سوى عدد قليل من الناس بالقوة الحقيقية، وحتى هؤلاء قد لا يمتلكون سوى حرية محدودة للغاية، لأن سلوكهم خاضع للتنظيم؛ ومثلما هو عليه الوضع الحالي، سيحافظ السياسيون والمسؤولون التنفيذيون في الشركات على مراكزهم القيادية طالما بقي سلوكهم ضمن حدود ضيقة.

١٦٤- لا أتصور توقف الأنظمة عن تطوير تقنيات إضافية للسيطرة على الإنسان والطبيعة بمجرد انتهاء أزمة العقود القليلة القادمة، وعدم تنامي سيطرتها لضمان بقائها. في المقابل، بمجرد انتهاء الأوقات العصيبة، سيضاعف النظام سيطرته بشكل أسرع، لأنه لن يواجه عقبات وصعوبات الوقت الحاضر. ولا تعد غاية البقاء الدافع الرئيسي لتوسيع نطاق السيطرة. وكما أوردنا في الفقرات من ٨٧ إلى ٩٠، يواصل التقنيون والعلماء أعمالهم كأنشطة بديلة تلبي حاجتهم إلى السلطة من خلال حل المشاكل التقنية.

ويستمرون في القيام بذلك باندفاع لا هوادة فيه، ومن بين المسائل الأكثر إثارة وتحديًا بالنسبة لهم حل المشاكل المختصة بإدراك ماهية جسد الإنسان وعقله والتدخل لتطويرهما من أجل «منفعة الإنسانية».

١٦٥- من ناحية أخرى، لنفترض اشتداد وطأة الضغوط على النظام في العقود القادمة، فإذا ضعف النظام قد تعم فترة من الفوضى، ويمر بـ«زمن الاضطرابات» مثل تلك التي سجلها التاريخ في أزمنة مختلفة، ويستحيل التنبؤ بنتائج هذه الاضطرابات. وعلى أي حال، تُمنح الأعراق البشرية فرصة جديدة، ويتمثل الخطر الأعظم في بدء المجتمع الصناعي إعادة تشكيل كيانه في غضون السنوات القليلة الأولى بعد الانهيار. وبالتأكيد، سوف يتعطش كثير من الناس لامتلاك مختلف أنواع السلطة ويحرصون على تشغيل المصانع مرة أخرى.

١٦٦- يواجه كارهو العبودية التي يفرضها النظام الصناعي مهمتين: أولاهما، مضاعفة الضغوط الاجتماعية داخل النظام من أجل زيادة احتمالية انهياره أو إضعافه بشكل كافٍ حتى تصبح الثورة ضده ممكنة. وثانيهما، تطوير ونشر أيديولوجية معارضة التقنية والمجتمع الصناعي عندما يصبح النظام ضعيفًا بما فيه الكفاية. وتساهم هذه الأيديولوجية في ضمان تحطيم بقايا النظام في حالة انهيار المجتمع الصناعي، بحيث يتعذر إصلاحها ولا يمكن إعادة بناء النظام، مثل تدمير المصانع وإتلاف الكتب التقنية.

معاناة الإنسان

١٦٧- لن ينهار النظام الصناعي بفعل الثورة، ولن يبدأ هجوم الثوار إلا إذا أدت مشكلات النظام التنموية الداخلية إلى صعوبات بالغة الخطورة. وقتئذ، سيكون انهيار النظام نتيجة حتمية، أو من خلال عملية تلقائية جزئيًا بالتوازي مع جهود الثوار. بينما إذا كان الانهيار مباغتًا، سينتج عنه مقتل العديد من الناس، بما أن عدد سكان العالم تضخم لدرجة أنهم لا يستطيعون إطعام أنفسهم لفترة أطول بدون تقنية متقدمة. وإذا كان الانهيار تدريجيًا بحيث يمكن أن يؤدي إلى إنقاص عدد السكان من خلال خفض معدل المواليد وارتفاع معدل الوفيات، قد تتسم عملية التفكيك الصناعي بالفوضوية وتقتضي الكثير من المعاناة.

من السذاجة الاعتقاد بإلغاء التقنية على مراحل بطريقة منظمة وسلسة، لاسيما أن محبي التقنية سيقاتلون بعناد في كل خطوة. ومن ثم، نتساءل: هل يعد العمل من أجل انهيار النظام عنفاً مروعاً وفظيعاً؟ نعم ولا. في المقام الأول، لن يتمكن الثوار من تدمير النظام ما لم توجد متاعب كافية وعراقيل داخلية تهيئ فرصة الانقضاض عليه؛ وكلما تفاقمت هيمنة النظام، كانت عواقب انهياره كارثية. لذلك، قد يؤدي إسراع الثوار بانهياره إلى تقليل حجم الكارثة.

١٦٨- في المقام الثاني، يتعين على المرء الموازنة بين النضال والموت ضد انعدام الحرية والكرامة. بالنسبة للكثيرين، تعد الحرية والكرامة أكثر أهمية من حياة طويلة الأمد أو تجنب الألم الجسدي.

إلى جانب ذلك، يتحتم علينا الموت في أي لحظة، وقد يكون من الأفضل الموت من أجل البقاء، أو من أجل قضية، بدلًا من عيش حياة مديدة خاوية وبلا غاية.

١٦٩- وفي المقام الثالث، ليس من المؤكد أن بقاء النظام سيؤدي إلى معاناة أقل من انهياره. لقد تسبب النظام، وما يزال، بمعاناة هائلة في جميع أنحاء العالم. في الحضارات القديمة الممتدة إلى مئات السنين، كانت علاقات الشعوب مع بعضهم البعض ومع بيئتهم متوائمة. وفي المجتمع الصناعي، تهشمت هذه العلاقات ونتج عنها قائمة من المشاكل الاقتصادية والبيئية والاجتماعية والسيكولوجية. كان أحد آثار تغلغل المجتمع الصناعي اللاتوازن بسبب القيود التقليدية المفروضة على السكان. ومن ثم، انبثق الانفجار السكاني بكل ما ينطوي عليه، وانتشرت المعاناة السيكولوجية على نطاق واسع في البلدان الغربية التي من المفترض أنها محظوظة (انظر الفقرتين رقم ٤٤ و٤٥).

لا أحد يعلم ما الذي سيحدث نتيجة لاستنفاد طبقة الأوزون، وتأثير الاحتباس الحراري والمشاكل البيئية الأخرى التي لا يمكن التنبؤ بعواقبها. وكما أظهر الانتشار النووي، لا يمكن إبعاد التقنية عن الديكتاتوريين والدول اللامسؤولة في العالم الثالث. هل تود التفكير بكيفية استخدام الهندسة الوراثية في العراق أو كوريا الشمالية؟

١٧٠- قد يرد عليك المتخصصون في مجال التقنية: «أوه!، حقًا؟ هل هذه عواقب استخدام التقنية؟ فليشارك العلم لتفاديها!

سنقضي على المجاعة والمعاناة السيكولوجية ونجعل الجميع أصحاء وسعداء!». هذا ما قالوه قبل ٢٠٠ عام، حيث توقعوا أن تقضي الثورة الصناعية على الفقر، وتجعل الجميع سعداء، في حين كانت النتيجة الفعلية مختلفة تمامًا. إن هواة التقنية ساذجون بشكل يائس (أو مضللون لأنفسهم) في طريقة استيعابهم للمشاكل الاجتماعية. لا يدركون أو يتجاهلون أن إضفاء تغييرات شاسعة على مجتمع ما، حتى ولو كانت مفيدة ظاهريًا، يؤدي إلى سلسلة متتالية من التغييرات، التي يستحيل التنبؤ بمعظمها (انظر الفقرة رقم ١٠٣)، والنتيجة هي تعطيل نمو المجتمع. ومن ثم، قد ينشأ من محاولاتهم للقضاء على الفقر والأمراض، شخصيات مطواعة، وأنظمة اجتماعية مضطربة أكثر من الحالية. على سبيل المثال: يتباهى العلماء بقدرتهم على إنهاء المجاعة بإنشاء مصانع للأغذية المعدلة وراثيًا، مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة السكان وتفاقم التوترات والاعتداءات. وسيؤدي التقدم التقني إلى مشاكل جديدة أخرى لا يمكن التنبؤ بآثارها (انظر الفقرة رقم ١٠٣). منذ بدء الثورة الصناعية، أوجدت التقنية مشاكل مجتمعية حديثة بوتيرة أسرع من حل المشاكل القديمة. وسوف يستغرق الأمر فترة طويلة وصعبة من التجارب والأخطاء لكي يتعلم التقنيون من أخطائهم ويبنون عالمهم الشجاع الحديث. في هذه الأثناء، سيتكبدون خسائر فادحة وجراحاً عميقة. ولذا، لا يبدو أن بقاء المجتمع الصناعي أقل معاناة من انهياره. وتمكنت التقنية من الأعراق البشرية حتى أصبحت المشاكل الناجمة عنها حتمية ومتعذر تفاديها.

المستقبل

١٧١- سنفترض بقاء المجتمع الصناعي خلال العقود القادمة، وعدم تعرض النظام التقني لأي هجوم، بحيث يؤدي عمله بسلاسة، فما هي احتمالات نوعية النظام الكائن؟

١٧٢- أولًا، نسلم جدلًا أن علماء الكمبيوتر نجحوا في تطوير آلات ذكية باستطاعتها تأدية أي مهمة بصورة أفضل من الإنسان. في هذه الحالة الافتراضية، تنفذ الأعمال من خلال أنظمة وآلات ضخمة ومنظمة ولا يوجد أي جهد إنساني ضروري. وقد يحدث أحد الأمرين: يُسمح للآلات باتخاذ جميع قراراتها بدون مراقبة بشرية، أو تستمر السيطرة البشرية على الآلات.

١٧٣- إذا اتخذت الآلات كافة قراراتها، لا يمكن توقع النتائج، لأنه يستحيل التنبؤ بكيفية عمل الآلات. ومن ثم، يغدو مصير البشرية تحت رحمة الآلات. يعتقد البعض أن الإنسان لن يكون مُغَفّلاً بما فيه الكفاية لتسليم سلطته للآلات، لكنه يحول سلطته إليها طوعًا ويعتمد على الماكينات كليًا إلى أن يفقد أي اختيار عملي ماعدا قبول قرارات الماكينات. مع تنامي تعقيد المجتمع ومشاكله وازدياد ذكاء الأجهزة، يسمح الناس للآلات باتخاذ المزيد من القرارات لأجلهم، لأن القرارات التي تتخذها الآلات تحقق نتائج أفضل من قرارات الإنسان. ويمكن الوصول إلى مرحلة تكون فيها القرارات اللازمة للحفاظ على تشغيل النظام معقدة للغاية بحيث لن يتمكن البشر من اتخاذها بوعي.

في هذه المرحلة، تسيطر الآلات بفعالية، ولن يتمكن الأفراد من إيقاف عملها، لأنهم يعتمدون عليها لدرجة أن تعطيلها بمثابة الانتحار.

١٧٤- من ناحية أخرى، قد تستمر السيطرة البشرية على الآلات. وفي هذه الحالة، قد يهيمن الإنسان على الآلات الخاصة به، مثل سيارته وحاسوبه الشخصي، وتقتصر سيطرة الأنظمة الكبرى على نخبة محددة مثلما يحدث في الزمن الحاضر، مع وجود اثنين من الاختلافات: تتفاقم سيطرة النخبة على الجماهير بسبب التقنيات الإضافية المتطورة. وتصبح الكتل البشرية فائضة عن الحاجة لأن عمل الإنسان لن يكون ضروريًا، ويشكل عبئاً عديم الفائدة على النظام. وإذا كانت النخبة وحشية ولا تدرك معنى الرحمة، تقرر ببساطة إبادة هذه التجمعات البشرية. أما إذا اتسمت بالإنسانية فقد تستخدم الدعاية وبقية التقنيات السيكولوجية والبيولوجية للحد من معدل المواليد حتى تنقرض الكتلة البشرية، وتترك العالم للنخبة. وإذا تكونت النخبة من ليبراليين عطوفين، فقد يقررون أداء دور الرعاة الصالحين من أجل الإنسانية، ويحرصون على توافر الاحتياجات المادية لكل فرد في المجتمع وتربية الأطفال في ظروف سيكولوجية صحية، وممارسة كل فرد لهوايته النافعة لإبقائه مشغولًا، وإخضاع أي شخص مستاء لـ«المعالجة» لحل «مشكلته». وبالطبع، تغدو الحياة بلا هدف لأن الناس مبرمجون بيولوجيًا وسيكولوجيًا إما لإزاحة حاجتهم إلى عملية السلطة أو لتشذيب دوافعهم نحو السلطة إلى هواية غير مؤذية. قد يكون هؤلاء البشر سعداء في مثل

هذا المجتمع، لكنهم بالتأكيد لن يكونوا أحراراً، ويختزل وضعهم إلى حالة الحيوانات الداجِنة.

١٧٥- في حالة إخفاق علماء الكمبيوتر في تطوير الذكاء الاصطناعي، لن تحتاج المؤسسات إلى العنصر البشري لأداء العمل. حاليًا، تؤدي الآلات المهام الأبسط لينتج عنها فائض متزايد من العمال ذوي المهارات المنخفضة. يجد الكثيرون صعوبة أو عدم إمكانية من الحصول على عمل، لأنهم لا يحصلون على مستوى التدريب الضروري الملائم للنظام لأسباب فكرية أو سيكولوجية. بينما يطرح العاملون مطالب متزايدة باستمرار لأن عملهم يقتضي تدريبات ومهارات مكثفة، وينبغي أن يكونوا مؤهلين لكي تستطيع المؤسسات الاعتماد عليهم، مطيعين، ومتقيدين بالضوابط إلى أن يشبهوا خلايا كائن عملاق. تعد مهامهم متخصصة، وتبتعد تدريجيًا عن الاتصال بالواقع، مع التركيز على جزء محدود منه. ويتعين على النظام استخدام أي وسيلة ممكنة، سواءً كانت بيولوجية أو سيكولوجية، لبرمجة الأفراد وتحويلهم إلى كائنات مطيعة سهلة الانقياد، لديهم القدرات التي يحتاجها النظام، وتنقيح دوافعهم نحو السلطة إلى مهام متخصصة. لكن نعت أي مجتمع بـ«المُنصاع» يتطلب توافر شروط معينة. وقد يجد المجتمع أن القدرة على المنافسة ناجعة، بشرط إيجاد طرق لتوجيه التنافسية نحو قنوات تخدم احتياجات النظام. يمكننا تصور مجتمع مستقبلي يتسم بالمنافسة اللانهائية على المكانة الاجتماعية ومناصب السلطة، ولن يصل إلى القمة سوى فئة قليلة، حيث تتواجد السلطة الحقيقية (انظر نهاية الفقرة رقم ١٦٣)

إن المجتمع الذي يلبي حاجة الفرد إلى السلطة عبر دفع مجموعات هائلة خارج نطاق السلطة وحرمانهم من الوصول إليها، بغيض، مُنَفِّر، طارد، وكريه.

١٧٦- يمكن للمرء تصور سيناريوهات فيها جوانب متعددة من الاحتمالات التي ناقشناها للتو، على سبيل المثال: تتولى الآلات معظم الأعمال ذات الأهمية الأساسية والعملية، وتمنح العناصر البشرية أعمالاً غير مهمة نسبيًا. وقد يوفر تطور صناعات الخدمات وظائف للإنسان. وهكذا، يقضي العاملون وقتهم في تلميع الأحذية، قيادة سيارات الأجرة، الحرف اليدوية، والانتظار على طاولات. وتبدو هذه طريقة وضيعة، وخسيسة لتدمير الإنسان. ولن يجد كثيرون أن حياة العمل عديم الجدوى هذه مرضية لطموحاتهم، وإذا لم يبرمجوا بيولوجيًا وسيكولوجيًا للتأقلم مع هذا النمط المعيشي، فإنهم سيتخذون طرقاً أخرى مثل: تناول العقاقير المخدرة، والجريمة، واتّباع الطوائف الدينية-السياسية، ومجموعات الكراهية.

١٧٧- لا تستنفد السيناريوهات المبينة أعلاه جميع الاحتمالات، وتشير فقط إلى أنواع النتائج المحتمل حدوثها بنسبة مرتفعة. ولا يمكن تصور سيناريوهات معقولة أكثر من تلك التي وصفناها للتو. إذا استمر النظام التقني - الصناعي خلال الأربعين إلى المائة سنة القادمة، قد يطوّر خصائص عامة معينة، مثل: الأفراد (لا سيما «البورجوازيين» المندمجين والمسؤولين في النظام والذين يمتلكون

الساطلة)، سيعتمدون على المنظمات الضخمة، وقد يتواضعون وينزلون من أبراجهم العاجية ويتواصلون مع بقية أفراد المجتمع، وستنبع ميزاتهم الجسدية والفكرية من تقنيات الهندسة بدلًا من كونها نتيجة الصدفة وإرادة الله؛ ويتقلص ما يتبقى من الطبيعة البرية إلى آثار للدراسة العلمية وبإشراف وإدارة العلماء، وبالتالي، لا يمكن اعتبارها فعليًا من عناصر الطبيعة البرية. على المدى البعيد، بضعة قرون قادمة، قد تختفي سمات الإنسان والكائنات الأخرى كما نعرفها اليوم، لأن تعديل الكائنات بالهندسة الوراثية لن يتوقف عند نقطة معينة، وقد تستمر التعديلات حتى يتحول الإنسان والكائنات الأخرى إلى مُسوخ.

١٧٨- تهيئ التقنية بيئة مادية واجتماعية جديدة تختلف جذريًا عن سلسلة المجتمعات التي كانت وليدة الانتقاء الطبيعي وانسجم معها الإنسان جسديًا وسيكولوجيًا. وإذا لم يبرمج الإنسان للتأقلم مع هذه البيئة الجديدة بطريقة مصطنعة، لن يتكيف إلا من خلال عملية انتقاء طبيعي ممتدة ومؤلمة. ويُتوقع حدوث الاحتمال الأول.

١٧٩- يُفضل تدمير النظام الفاسد وتحمل العواقب.

خطة استراتيجية

١٨٠- يأخذنا التقنيون على متن رحلة متهورة إلى المجهول. ويمسك كثير من الناس بتلابيب التقدم التقني ولا يدركون مختلف جوانبه وماهية ما يقدمه لنا، ويعد موقفهم تجاهه سلبيًا لأنهم

يعتقدون بضرورته. بينما لا نعتقد أنه أمر حتمي ويمكن منع توغله في المجتمعات. نوضح فيما يلي بعض الدلائل عن كيفية الحد من هيمنته:

١٨١- أوردنا في الفقرة رقم ١٦٦، أن المهمتين الرئيسيتين في الوقت الحاضر هما تكثيف الإجهاد الاجتماعي وزعزعة الاستقرار في المجتمع الصناعي، وتطوير ونشر أيديولوجية معارضة للتقنية والنظام الصناعي. عندما يصل النظام إلى درجة اللاستقرار والإنهاك، قد تندلع ثورة ضد التقنية بنمط مشابه للثورة الفرنسية والروسية. قبل انطلاق الثورة الفرنسية والروسية بعقود عدة، ظهرت في المجتمع الفرنسي والروسي علامات متنامية من التوتر والضعف. وفي هذه الأثناء، تطورت الأيديولوجيات التي قدمت أفكاراً عالمية مختلفة عن الرؤى السابقة. في الحالة الروسية، كان الثوار يعملون بنشاط من أجل تقويض النظام. وتضاعفت الضغوط التي يتعرض لها النظام بسبب الأزمة المالية في فرنسا والهزيمة العسكرية في روسيا، حتى جرفته الثورة. لذا، نقترح اتباع نهج مماثل لمناهضة التقنية.

١٨٢- قد يحتج أحد ما ويقول بأن الثورة الفرنسية والروسية تعرضتا لإخفاقات. لكن معظم الثورات تسعى إلى تحقيق أمرين: أولهما، تدمير شكل المجتمع القديم، وثانيهما، إنشاء شكل المجتمع الحديث المتصور لدى الثوار. ولحسن الحظ، فشل الفرنسيون والروس في خلق نوع جديد من المجتمع الذي أرادوه، لكنهم

نجحوا في تدمير المجتمع القديم. ليس لدينا تصورات حول جدوى إنشاء شكل جديد ومثالي للمجتمع. وهدفنا الوحيد هو تدمير شكل المجتمع الآني.

١٨٣- تمنح الأيديولوجية الدافع الداعم للمضي قدمًا، ويجب أن توفر نموذجاً إيجابياً وسلبياً، الشيء وضده. أقترح أن تكون الطبيعة البرية ميدانًا للنموذج الإيجابي، بخصائصها وكائناتها المستقلة عن الإدارة البشرية وتدخل وسيطرة الإنسان. وتندرج الطبيعة البشرية ضمن الطبيعة البرية، ونعني بها جوانب أداء الإنسان التي لا تخضع لتنظيم مجتمع متناسق، وتكون نتاج الصدفة، الإرادة الحرة، والله (وفقًا للآراء الدينية أو الفلسفية).

١٨٤- تُعد الطبيعة نموذجاً مثالياً في تناقضها مع التقنية لأسباب عدة: إن الطبيعة (التي تقع خارج نطاق سيطرة النظام) هي عكس التقنية (التي تسعى إلى تدعيم سلطة النظام إلى أجل غير مسمى). ويتفق معظم الناس على جمال الطبيعة وتأثير جاذبيتها الرائعة. يؤمن أنصار البيئة المتشددون بأيديولوجية تقديس الطبيعة ومخالفة التقنية، لكن الأمر لا يقتضي تأسيس طوباوية وهمية أو أي نوع جديد من النظام الاجتماعي. تعتني الطبيعة بشؤونها: فهي موجودة قبل تكوين أي مجتمع بشري بفترة طويلة، ولعدة قرون تعايشت أنواع مختلفة من المجتمعات البشرية معها، دون التسبب بأضرار كبيرة. لم يكن تأثير المجتمعات البشرية مدمراً على الطبيعة إلا في أعقاب الثورة الصناعية. ولتخفيف الضغط على الطبيعة، لا يستلزم إنشاء

نوع خاص من النظام الاجتماعي، لأن غايتنا تتمحور حول انهيار المجتمع الصناعي، ولن يؤدي ذلك إلى حل كافة المشاكل.

ألحق المجتمع الصناعي أضرارًا كبيرة بالطبيعة وسوف يستغرق التئام جروحها وقتاً طويلاً. بالإضافة إلى ذلك، أضرت مجتمعات ما قبل عصر الصناعة بالطبيعة، غير أن تدمير المجتمع الصناعي سيزيح أسوأ الضغوط التي أثقلت كاهل الطبيعة، سيزيل آثار ندوبها، ويلغي استمرار قدرة المجتمع المنظم على إحكام قبضته على الطبيعة، بما في ذلك الطبيعة الإنسانية. ومهما كان نوع المجتمع الناشئ بعد هلاك النظام الصناعي، سوف يقيم معظم الأفراد بالقرب من الطبيعة، لأنه في ظل غياب التكنولوجيا المتقدمة لا يوجد نمط معيشي آخر. وللحصول على الغذاء، يجب أن يكونوا مُزَارِعين، رعاة، صيادي أسماك وقناصين. وبشكل عام، يجب دعم الاستقلالية المحلية، لأن الافتقار إلى التكنولوجيا المتقدمة والاتصالات السريعة سوف يحد من قدرة الحكومات أو المنظمات الكبرى على السيطرة على التجمعات المحلية.

١٨٥- بالنسبة لنتائج تدمير المجتمع الصناعي السلبية، لا يمكنك التهام الكعك والمحافظة عليه في آنٍ معًا: للحصول على شيء، يجب التضحية بآخر.

١٨٦- يمقت معظم الناس النزاعات السيكولوجية. لهذا السبب، يتجنبون التفكير بالقضايا الاجتماعية الشائكة، ويفضلون أن تكتب بعبارات بسيطة، وبمصطلحات اللونين الأبيض والأسود:

هذا جيد وذاك سيء. لذلك، يجب تطوير الأيديولوجية الثائرة على مستويين.

١٨٧- في المستوى المتطور- الدقيق، تتوجه الأيديولوجية إلى الأذكياء والمفكرين والعلماء لتأسيس نواة معارضة للنظام الصناعي على أسس منطقية مدروسة تدرك المشاكل والغموض المتضمن فيها، وتقدّر الثمن الذي يجب دفعه لتدمير النظام.

يجب معرفة كيفية استمالة هذه الطبقة الاجتماعية الخاصة والتأثير عليها، لأن دورهم فعال في التأثير على الآخرين. كما يجب التعامل معهم بوعي واحترام قدر الإمكان. لا ينبغي تشويه الحقائق عمدًا والتحدث إليهم بلغة معقدة، يمكن مخاطبتهم بلغة عاطفية، لكن دون تحوير للحقيقة أو القيام بأمر يقلل من شأن الأيديولوجية وأفكارها.

١٨٨- في المستوى الثاني، تُنشر الأيديولوجية بمحتوى مُبَسّط وعبارات واضحة لتمكين الأغلبية اللاواعية من رؤية التناقض بين التقنية والطبيعة. ولا ينبغي التعبير عن الأيديولوجية بلغة متدنية أو متطرفة أو لا منطقية لكي لا تنفر المفكرين والمنطقيين. أحيانًا، تحقق الدعاية المتدنية والمتطرفة مكتسبات هائلة على المدى القريب، بيد أن اللغة الرصينة أكثر فائدة على المدى البعيد للحفاظ على موالاة فئة قليلة ملتزمة بذكاء ووعي بدلًا من إثارة مشاعر غوغاء متقلبة ولا واعية سرعان ما يغيرون مواقفهم إذا تعرضوا لوسيلة إعلامية تستخدم تحايلاً أفضل للدعاية. قد تكون الدعاية الغوغائية المثيرة

للاشمئزاز ضرورية عندما يقترب النظام من نقطة الانهيار، وتتنازع الأيديولوجيات المتنافسة لتحديد من يهيمن عقب انهيار النظام.

١٨٩- قبل نهاية الصراع، لا يتوقع الثوار تأييد الأغلبية لأن التاريخ تصنعه أقليات نشطة ومحددة، وليس الأغلبية التي نادرًا ما تشكل فكرة واضحة ومتسقة عما تريد فعله. وإلى أن يحين وقت ما قبل انطلاق الثورة، تقتصر مهمة الثوار على اكتساب دعم ضئيل من الأغلبية، بناء نواة مصغرة من المفكرين الملتزمين، الاكتفاء بإدراك الأغلبية لأيديولوجيتهم الجديدة، تذكيرهم بها باستمرار، ومحاولة الحصول على دعمهم قدر المستطاع بدون إضعاف نواة المفكرين الأساسية.

١٩٠- يساهم الصراع الاجتماعي في زعزعة استقرار النظام، لكن يجب على المرء توخي الحذر بشأن نوع النزاع الذي يشجعه. ويحدد خط الصراع بين الشعب والنخبة الحاكمة في المجتمع الصناعي المكونة من السياسيين، العلماء، المسؤولين التنفيذيين المرموقين، المسؤولين الحكوميين وغيرهم، وليس بين الشعب والثوار. على سبيل المثال: تُستبدل إدانة الأميركيين بسبب عاداتهم الاستهلاكية بتصوير المواطن الأميركي كضحية لصناعة الإعلان والتسويق، التي تجرده من ماله، تحرضه على شراء أشياء لا يرغب حقيقة فيها ولا يحتاج إليها، والتي تعتبر تعويضاً سيئاً لحريته المفقودة. ينبغي أن يكون النهج متسقًا مع الحقائق، فإما أن تحدد موقفك بإلقاء اللوم على صناعة الإعلان للتلاعب بالجمهور أو تلوم الجمهور لأنهم تقبلوا التلاعب بهم. وكاستراتيجية، لا توجه اللوم إلى الجمهور.

١٩١- يجب أن يفكر المرء مرتين قبل تشجيع أي صراع اجتماعي آخر بين النخبة المهيمنة على السلطة (المتحكمة بالتقنية) والجمهور العام (الذي تفرض التقنية قوتها عليهم). من جهة، تشتت الصراعات الأخرى الانتباه عن النزاع الرئيسي (بين النخبة الحاكمة والشعب، وبين التقنية والطبيعة)؛ ومن جهة أخرى، تحث الصراعات الأخرى على مساندة التقنيين، لأن كل طرف في الصراع سوف يستعين بقوة التكنولوجيا للتفوق على خصمه. ويتجلى هذا الأمر في التنافس بين الدول والنزاعات العنصرية داخل الدول. على سبيل المثال، في الولايات المتحدة، يتوق القادة السود إلى وصول الأميركيين - الأفارقة إلى السلطة باستثمارهم في النخبة الحاكمة التقنية. ويطمحون إلى أن يكونوا مسؤولين حكوميين، علماء، مدراء تنفيذيين للشركات... إلخ. وبهذه الطريقة، يساعدون على استيعاب الثقافة الأميركية - الأفريقية الفرعية في النظام التقني. ولذا، يجب الاكتفاء بتأييد الصراعات الاجتماعية التي تندرج ضمن صراعات النخبة الحاكمة ضد الشعب، والتقنية ضد الطبيعة.

١٩٢- لا يمكن إعاقة النزاعات العنصرية بدفاع الثوار عن حقوق الأقليات (انظر الفقرتين رقم ٢١ و٢٩)، ويجب على أعداء التقنية التشديد على أن معاناة الأقليات وحرمانها من بعض الحقوق من مساوئ المجتمع ذات الأهمية الهامشية، لأن عدوهم الحقيقي هو النظام الصناعي-التقني، وأثناء القتال ضد النظام، تتضاءل أهمية التمييز العنصري.

١٩٣- لا تشمل الثورة ضد التقنية استخدام السلاح ضد الحكومة. قد تنطوي على عنف جسدي، لكنها لا تعتبر ثورة سياسية. بل تركز على التقنية والاقتصاد، وتبتعد عن السياسة.

١٩٤- ينبغي على الثوار ضد التقنية تجنّب السلطة السياسية، سواءً بالوسائل القانونية أو غيرها، حتى يصل النظام الصناعي إلى مرحلة حرجة، ويثبت فشله لدى أغلبية الشعب. لنفترض أن الحزبَ «الأخضر» يجب أن يفوز بالسيطرة على الكونغرس الأميركي في الانتخابات. ولئلا يتخلى عن أيديولوجيته أو يهمل جزءاً منها، فإن عليه اتخاذ إجراءات قوية لتحويل النمو الاقتصادي إلى انكماش، ستبدو النتائج كارثية بالنسبة للمواطن العادي، سترتفع نسبة البطالة، وتنقص السلع. وإذا تيسَّر تجنب الآثار السيئة بإدارة خارقة، فعلى الناس التخلي عن وسائل الترف التي اعتادوها، وسيتنامى السخط بينهم ويصوتون عندها لتغيير حكومة «الحزب الأخضر» وسيعاني الثوار من نكسة مريرة بسبب ذلك. لذا فإن على الثوار ألا يحاولوا اكتساب سلطة سياسية إلى أن يغرق النظام في الفوضى، ليعرف الناس أن أي صعوبات يعانونها ناتجة من إخفاقات النظام الصناعي وليس من سياسات مناهضيه. فالثورة ضد التكنولوجيا ينبغي أن تكون من خارج النظام، وأن تنبع من قاعدة هرم المجتمع وليس من قمته.

١٩٥- يجب عولمة الثورة وتدويلها لأنه لا يمكن أن تنفذها كل أمة على حدة. وحينما يقترح على الولايات المتحدة تقليص التقدم

التكنولوجي أو النمو الاقتصادي، سيهلع الأمريكيون وسيصرخون خوفاً من تقدم اليابانيين إن هم تخلفوا عن قافلة التقنية، إنها الروبوتات المقدسة! سوف يطير العالم ويغادر كوكب الأرض مداره الفلكي إذا باع اليابانيون سيارات أكثر من الأميركيين! إن النزعة القومية من أهم محفزات التقنية. والمبرر الأكثر منطقية واتزانًا، الجدل الدائر فيما إذا تراجع مستوى التقنية في الدول الديموقراطية وتقدم في الدول الديكتاتورية السيئة، مثل الصين وفيتنام وكوريا الشمالية، سوف يتحكم المستبدون بالعالم. ومن ثم، ينبغي مهاجمة النظام الصناعي في مختلف الدول في آنٍ معًا، إلى أقصى حد ممكن. بيد أنه لا يوجد ضمان لإمكانية تدمير النظام الصناعي في جميع أنحاء العالم في الوقت نفسه، ومن المتصور أن يهيمن الديكتاتوريون على النظام عقب محاولة الإطاحة به. لذا، يجب الحذر من هذه العاقبة. وما يستحق الاهتمام أن الاختلاف بين نظام صناعي ديموقراطي ونظام صناعي ديكتاتوري ضئيل مقارنةً بالاختلاف بين نظام صناعي وآخر غير صناعي. ويمكن القول إن النظام الصناعي الديكتاتوري قد يكون الأفضل، لأن الأنظمة الديكتاتورية واهنة وأكثر عرضة للانهيار، كما هو الحال في كوبا.

١٩٦- قد يفضل الثوار الإجراءات التي تربط الاقتصاد في العالم في وحدة كلية. ويُحتمل أن تكون اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية (نافتا) والاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة (جات) ضارة بالبيئة على المدى القريب، لكنها مفيدة على المدى البعيد لأنها تؤيد الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين الدول. وتُيسر تدمير النظام

الصناعي على أسس عالمية، لأن انهيار الاقتصاد العالمي في أي دولة كبرى يؤدي إلى انهياره في جميع الدول الصناعية.

١٩٧- يعتقد بعضهم أن للإنسان المعاصر سلطة كبيرة، ويسود الطبيعة أكثر مما ينبغي، ويجادلون في موقف البشرية السلبي في هذه المسألة. يعوز هؤلاء الوضوح في التعبير عن رأيهم لأنهم لا يميزون بين سلطة المؤسسات الضخمة وسلطة الأفراد والمجموعات الصغيرة. لا يجب الدفاع عن الضعف والسلبية، لأن المجتمع بحاجة إلى سلطة. يملك الإنسان المعاصر باعتباره كياناً جماعياً -وهذا هو النظام الصناعي - سلطة هائلة على الطبيعة، وهذا من الشرور، لكن سلطة الأفراد المعاصرين والمجموعات الصغيرة هي أقل بكثير من سلطة البدائي على الطبيعة، فبشكل عام لا تمارس سلطة الإنسان المعاصر الشاسعة على الطبيعة من قبل أفراد أو مجموعات صغيرة، بل من قبل المنظمات الكبرى. وبناءً على مدى قدرة الإنسان المعاصر في استخدام سلطة التقنية، يُسمح له بذلك ضمن حدود ضيقة وبإشراف وسيطرة النظام. فيحتاج الفرد لتراخيص لكل أفعاله ومعها تأتي القواعد والقوانين. فليس للفرد إلا القوى التقنية التي يحددها ويوفرها له النظام، وبالتالي فإن سلطته الشخصية على الطبيعة محدودة وطفيفة.

١٩٨- كانت سلطة الأفراد البدائيين والمجموعات الصغيرة على الطبيعة فائقة لكنها كانت سلطة ضمن الطبيعة. على سبيل التوضيح: حين يحتاج الإنسان البدائي إلى الطعام، كان يعرف كيف

يجده، ويعرف ما الطعام المناسب للأكل، وكيف يتعقب الطريدة ويصيدها بأسلحة محلية. لقد استطاع حماية نفسه وعائلته من ارتفاع درجة الحرارة، ومن الطقس البارد الممطر، والحيوانات المفترسة. لم يؤذ الطبيعة إلا بنسبة بسيطة، لأنها كانت مصدر قوته. كذلك كانت سلطة الجماعة في المجتمع البدائي ضئيلة مقارنة بسلطتها في المجتمع الصناعي.

١٩٩- بدلًا من الجدل في مسألة الضعف والسلبية، ينبغي على المرء الاهتمام بتدمير سلطة النظام الصناعي، مما يؤدي إلى زيادة سلطة وحرية الأفراد والمجموعات الصغيرة.

٢٠٠- وإلى أن يتم تحطيم النظام الصناعي، يجب أن يركز أعداء التقنية على كيفية تدميره. والأهم من ذلك، إذا انشغل الثوار بغاية أخرى ماعدا تدمير التقنية، قد يستعينون بالتقنية لإنجاز مهمتهم الأساسية. وإذا استسلموا لذلك، سوف يسقطون مرة أخرى في الفخ التقني، لأن التكنولوجيا الحديثة نظام موحد ومحكم بإتقان. وإذا أراد المرء استبقاء جزء من التكنولوجيا، قد يحتفظ بمعظم أدوات التقنية، ولا يضحي سوى بجزء رمزي منها.

٢٠١- لنفترض أن الثوار تبنوا هدف «العدالة الاجتماعية»، إذا لم يتغير الإنسان المعاصر، لن تأتي العدالة الاجتماعية تلقائيًا، ويجب فرضها، لأن الحقوق لا تُستجدى بل تُنتزع بالقوة. ومن أجل إنفاذها، يجب استبقاء أدوات التحكم والتنظيم المركزي. ولتحقيق ذلك، يحتاجون إلى وسائل نقل واتصالات سريعة لتقريب المسافات

المتباعدة، أي التقنية اللازمة لدعم أنظمة النقل والاتصالات. ولإطعام وكساء الفقراء، يجب استخدام التقنية الزراعية والتصنيعية، وهكذا دواليك. ومن ثم، تضطرهم محاولة ضمان العدالة الاجتماعية إلى المحافظة على معظم أجزاء النظام التقني. ولذا، يقتضي تدمير النظام التقني إلغاء العدالة الاجتماعية.

٢٠٢- لا يستطيع أعداء التقنية مهاجمة النظام بدون استخدام جزء من التقنيات الحديثة، حيث يجب استخدام وسائل الاتصال لنشر رسالتهم. لكن استخدامها يجب أن يقتصر على مهاجمة النظام التقني.

٢٠٣- تخيل مدمن خمر يجلس بالقرب من برميل نبيذ. ولنفترض أنه ورد في خاطره: «النبيذ لن يضرك إذا استخدمته بلا مغالاة. كما أن كمية قليلة منه مفيدة! لن يؤذيني إذا تناولت كأسًا صغيرًا واحدًا...». حسنًا، تعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك. وتذكر دائمًا أن استخدام الإنسان للتقنية يشبه مدمن خمر جالس أمام برميل نبيذ.

٢٠٤- ينبغي أن ينجب الثوار أكبر عدد ممكن من الأطفال، ثمة أدلة علمية على توارث المواقف الاجتماعية. ليس معنى هذا أن الموقف الاجتماعي هو نتيجة مباشرة لدستور المرء الجيني. لكن يبدو أن سمات الشخصية موروثة جزئياً، وتميل سمات شخصية محددة -ضمن سياق المجتمع- إلى جعل الفرد يتخذ مواقف اجتماعية معينة دون سواها، وبالرغم من أن اعتراضات قد أثيرت على هذه

النتائج، لكنها اعتراضات ضعيفة وبدوافع أيديولوجية. وعلى أي حال، لا أحد ينكر أن الأطفال يتبنون -بمعدل متوسط- مواقف اجتماعية مماثلة لمواقف آبائهم. ومن وجهة نظرنا، لا يهم إن كانت المواقف تنتقل من خلال المورثات أو التدريب في مرحلة الطفولة، مادامت تنتشر في كلتا الحالتين.

٢٠٥- يخشى المتمردون ضد النظام الصناعي من مشاكل المجتمع، ولذا، يميلون إلى إنجاب قليل من الأطفال أو عدم الإنجاب بالمرة. وبهذه الطريقة، يتولى زمام القيادة الجيل الذي يدعم أو يقبل بهيمنة النظام الصناعي. ولضمان مقاومة الجيل القادم من الثوار، يجب أن ينجب الجيل الحالي المزيد من الأطفال. قد تتفاقم مشكلة السكان بشكل طفيف، بيد أن تدمير النظام الصناعي أكثر أهمية، لأنه بمجرد أن يختفي النظام الصناعي، سوف ينخفض بالضرورة عدد سكان العالم (انظر الفقرة رقم ١٦٧)؛ وإذا استمر حكم النظام الصناعي، سوف يطور تقنيات جديدة لإنتاج الأغذية قد تؤدي إلى مضاعفة نسبة سكان العالم إلى أجل غير مسمى.

٢٠٦- فيما يختص باستراتيجية الثوار، نشدد على أن القضاء على التقنية الحديثة غايتهم الأساسية، ولا يمكن السماح بالانشغال لتحقيق غاية أخرى. كما يجب عليهم اتباع نهج تجريبي، فإذا كانت التجربة تشير إلى أن نتائج التوصيات الواردة في الفقرات السابقة خاطئة، ينبغي عندئذ إهمال التوصيات.

نوعين من التكنولوجيا

٢٠٧- من الاعتراضات المطروحة ضد الثورة المقترحة: حتمية فشلها، لأنه على مر التاريخ، تقدمت التكنولوجيا ولم تتراجع أبدًا، وبالتالي، فإن التراجع التكنولوجي مستحيل. بيد أني أعتقد بخطأ هذا الادعاء.

٢٠٨- ثمة نوعان من التقنية: تقنية محدودة النطاق وتقنية معتمدة على المنظمات. تستخدم الأولى في التجمعات المحدودة بدون مساعدة خارجية، وتستند الثانية إلى منظمات اجتماعية واسعة النطاق. لا توجد حالات مهمة عن تراجع التقنية محدودة النطاق. في حين أن التقنية المعتمدة على المنظمات تتراجع عندما تنهار المؤسسة الاجتماعية التي ترتكز عليها، على سبيل المثال: عندما انهارت الإمبراطورية الرومانية، استمرت تقنية الرومان محدودة النطاق لأن أي حِرَفيّ قروي بارع يستطيع بناء ناعورة مائية أو ساقية، وأي حَدَّاد ماهر يمكنه صناعة أدوات فولاذية بالأساليب الرومانية. لكن التقنية المعتمدة على التنظيم الروماني انتكست، ودُمرت قنواتهم المائية ولم يتم إعادة بنائها، وأهمل تشييد الطرق بالأسلوب الروماني، فضلًا عن إهمال نظام الصرف الصحي الروماني في المناطق الحضرية، حتى انتشرت في كافة المدن الأوروبية في العصر الحديث.

٢٠٩- قبل قرن أو قرنين من انطلاق الثورة الصناعية، كانت معظم التقنيات محدودة النطاق، لكن بعد الثورة الصناعية صارت معظم التقنيات التي تم تطويرها تقنيات معتمدة على المنظمات.

لنلق نظرة على أجهزة التبريد مثلاً، تصنع أجزاءها في مصانع وأجزاء أخرى في ورش ما بعد التصنيع، ولا يستطيع الحرفيون بناء جهاز تبريد واحد، وحتى إن فعلوا فستكون عملية بلا قيمة لأنهم يحتاجون لمصدر طاقة موثوق، وعليهم حينئذ بناء مولد كهربائي، وهذا يحتاج لكميات كبيرة من الأسلاك النحاسية، ولن تجدي محاولتهم لتوفير هذه الأسلاك دون آلات حديثة، كما أنهم في حاجة لغاز مناسب للتبريد فمن أين يمكنهم الحصول عليه، سيكون من الأسهل اللجوء لبناء مستودع ثلجي، أو حفظ الطعام بطريقة التجفيف أو القطاف كما كان يفعل أجدادهم قبل اختراع أجهزة التبريد.

٢١٠- لذا، فإذا ما تفكك النظام الصناعي كاملاً، فستفقد المجتمعات تقنية التبريد بسرعة، هذا الأمر سينطبق على التقنيات الأخرى المعتمدة على المنظمات، وبمجرد ضياع هذه التكنولوجيا لجيل كامل أو أكثر، فإن الأمر سيتطلب قروناً لإعادة بنائها، كما استغرقت قروناً لبنائها أولاً. فالكتب الفنية اللازمة لذلك ستكون قليلة ومبعثرة، ولا يمكن بناء مجتمع صناعي من الصفر دون مساعدة خارجية إلا في سلسلة من المراحل، ستحتاج لأدوات لتصنيع أدوات لازمة لصنع أدوات تلزم صناعة أدوات... وهكذا.

إنها عملية طويلة من التطور الاقتصادي والتقدم في التنظيم الاجتماعي، وحتى في غياب أيديولوجية مناهضة للتكنولوجيا، فما من سبب للاعتقاد أن أحداً سيكون مهتماً بإعادة بناء المجتمع

الصناعي. إن الحماس للتقدم ظاهرة خاصة بالشكل الحديث للمجتمع، ويبدو أنه لم يكن موجوداً قبل القرن السابع عشر.

٢١١- في أواخر العصور الوسطى، اجتمعت أربع حضارات رئيسية «متطورة»: أوروبا، العالم الإسلامي، الهند، والشرق الأقصى (الصين، اليابان، وشبه جزيرة كوريا). ماتزال ثلاث حضارات مستقرة إلى حدٍ ما، وأصبحت أوروبا ديناميكية. لا أحد يعلم سبب تحول أوروبا، ولا يفصح المؤرخون إلا عن نظرياتهم التأملية. يحدث التنامي المتسارع نحو شكل مجتمعي تقني في ظروف خاصة. ولا يوجد سبب لافتراض أنه لا يمكن حدوث تراجع تقني طويل الأمد.

٢١٢- هل يتطور المجتمع مرة أخرى نحو شكل تقني- صناعي؟ ربما، لا يمكننا التنبؤ أو التحكم بأحداث مستقبلية تتراوح فترتها بين ٥٠٠ و١٠٠٠ عام. هذه مهمة الأجيال القادمة لمواجهة مشاكلهم.

خطر الحركة اليسارية

٢١٣- غالباً ما يكون اليساريون أو المشابهون لهم سيكولوجياً غير مهتمين في بادئ الأمر بالحركات المتمردة أو الناشطة المختلفة عن أهدافهم اليسارية، وبسبب حاجتهم للتمرد والانتماء إلى منظمة أيديولوجية، فإنهم قد يتدفقون للانتساب لحركات متمردة غير يسارية، ويمكن أن يؤدي هذا إلى تحويل هذه الحركة إلى حركة

يسارية، بحيث تُستبدل أهداف وغايات الحركة الأصلية إلى أهداف يسارية وتشوهها.

٢١٤- لتفادي التحول المذكور، ينبغي أن تتخذ الحركة المساندة للطبيعة والمعادية للتقنية موقفًا معاديًا لليساريين ولا تتعاون معهم، لأن الحركة اليسارية لا تتناغم على المدى البعيد مع الطبيعة البرية، حرية الإنسان، والقضاء على التقنية الحديثة. فهي تناصر المذهب الجمعي وتدعو إلى اتحاد الطبيعة والإنسان في وحدة كلية وهذا ينطوي على سيطرة المجتمع المنظم على إدارة الطبيعة والحياة البشرية معاً، كما أنه يتطلب تقدم التكنولوجيا. فلا تستطيع ربط دول العالم دون اتصالات ووسائل نقل سريعة، ولا يمكن نشر المودة والتآلف بين الناس بدون تقنيات سيكولوجية معقدة، وتحتاج إلى أسس تقنية للحصول على مجتمع مخطط. والأهم من ذلك، يسعى اليساري لتحقيق السلطة على أساس جمعي، ومن خلال الانتماء إلى حركة جماهيرية أو منظمة. ومن المستبعد أن يتخلى اليساريون عن التكنولوجيا، لأنها مصدر قَيِّم للسلطة الجماعية.

٢١٥- يحرص الفوضوي (الأناركي) على السلطة المستندة إلى قوة فردية أو ضمن مجموعات صغيرة تطمح إلى التحكم بظروف حياتها الخاصة. ويعارض التكنولوجيا لأنها تضطر المجموعات الصغيرة إلى الارتكاز على المنظمات الكبرى.

٢١٦- يعارض اليساريون التقنية إذا كانوا خارج النظام الذي يسيطر عليه غير اليساريين. بينما إذا هيمن اليساريون على المجتمع،

فإنهم يستعينون بالنظام التكنولوجي، ويشجعون على تنميته. ومن ثم، تتكرر أنماط النزعة اليسارية. عندما كان البلشفيّون الروسيون خارج السلطة، عارضوا بشدة الرقابة والشرطة السرية وأيدوا تقرير المصير للأقليات العرقية. لكن بمجرد وصولهم إلى كرسي السلطة، فرضوا رقابة أكثر صرامة وأسسوا شرطة سرية أكثر عنفًا وقسوة من شرطة القياصرة، وقمعوا الأقليات. وقبل عقدين من الزمان في الولايات المتحدة، كان اليساريون يمثلون أقلية في الجامعات، ودافع الأساتذة اليساريون عن الحرية الأكاديمية، وبعدما شكلوا الأغلبية في الجامعات، أظهروا استعدادهم للتخلي عن الحرية الأكاديمية وكل ما يتعلق بها، (وهذا هو «الصواب أو التعديل السياسي»). وينطبق الشيء ذاته على اليساريين والتقنية: سوف يستخدمونها بغرض الاضطهاد إذا أحكموا قبضتهم على السلطة.

٢١٧- في الثورات السابقة، تعاون اليساريون المتعطشون للسلطة مع الثائرين اللايساريين واليساريين الأكثر تحررًا، ثم تجاوزوهم للاستيلاء على السلطة، كما فعل المحامي والسياسي ماكسميليان روبسبير، أحد الشخصيات الرئيسية المؤثرة في الثورة الفرنسية، البلاشفة في الثورة الروسية، الشيوعيون في إسبانيا عام ١٩٣٨، وفيدل كاسترو وأتباعه في كوبا. وبتأمل تاريخ اليساريين، قد يكون من الغباء تعاون الثائرين اللايساريين معهم.

٢١٨- أشار مفكرون مختلفون إلى أن الأيديولوجيا اليسارية تشبه العقيدة الدينية، ولا تعتبر ديانة بالمعنى الدقيق لأن العقيدة

اليسارية لا تفترض وجود كائن خارق للطبيعة. لكن بالنسبة لليساري تؤدي اليسارية دورًا سيكولوجيًا مماثلًا لدور الدين لدى بعض الأفراد، ودورًا حيويًا في اقتصاده السيكولوجي. لا يمكن تغيير معتقداته بسهولة من خلال المنطق أو الحقائق، إنه يتمسك بأخلاقيات عقيدته التي يراها أكثر أخلاقية من الرأسمالية، ويعتقد بوجوب فرضها على المجتمع.

رغم ذلك، لا يفكر كثير منهم باعتبار أنهم يساريون، ولا يصفون نظام معتقداتهم باليساري، لكننا نستخدم مصطلح «اليساري» لأننا لا نعرف مصطلحاً أفضل يحدد مجموعة العقائد المتصلة بهم، والتي تشمل مناصري حقوق المرأة، وحقوق المثليين، والتغيير السياسي، ومختلف الحركات الأيديولوجية المتوائمة مع اليسار القديم. (انظر الفقرات رقم ٢٢٧-٢٣٠).

٢١٩- إن اليسارية قوة شمولية، وعندما تمتلك السلطة تجتاح كل زاوية خاصة وتشكل كل الأفكار في قالب يساري. يرجع ذلك جزئيًا إلى الطابع شبه الديني للحركة اليسارية التي تعتبر الأفكار المخالفة لمعتقداتها خطيئة وجريمة. بالإضافة إلى ذلك، تعد قوة شمولية بسبب الدافع اليساري تجاه السلطة، حيث يسعى اليساري إلى تلبية حاجته إلى السلطة بالانتماء إلى حركة اجتماعية جماهيرية، واجتياز عملية السلطة عبر تحقيق أهداف الحركة واتباع نهجها (انظر الفقرة رقم ٨٣). وبغض النظر عن المدى الذي وصلت إليه الحركة لتحقيق أهدافها، لن يرضى اليساري لأن نشاطه بديل (انظر الفقرة

ـفم ٤١)، مما يدل على أن دافعه الحقيقي لا يتجلى في إنجاز طموحاته الظاهرية، بل في إحساس القوة الناتج عن النضال والوصول إلى هدف اجتماعي. وبالتالي، لا يقتنع بالغايات التي حققها؛ لأن رغبته الشديدة في امتلاك زمام السلطة تحفزه لتحقيق أهداف جديدة. يدعو اليساري إلى تكافؤ الفرص للأقليات، وعندما يتحقق ذلك، يشدد على المساواة الإحصائية لإنجازات الأقليات. وعندما تتبنى مجموعات مواقف عدائية تجاه الأقليات، يحرص على توعيتها وإعادة تثقيفها. لا يدافع عن الأقليات العرقية فحسب؛ حيث لا يسمح باتخاذ مواقف سلبية من الشاذين جنسيًا، المعاقين، البُدناء، كبار السن، والبشعين. ولا يكفي أن يكون الجمهور على علم بمخاطر التدخين، بل يوجب دمغ التحذير على كل علبة تبغ، ثم يدعو لتقييد إعلانات التبغ، إن لم يكن حظرها. ولن يرضى الناشطون أبدًا حتى يتم حظر التدخين. بعد ذلك، سيوجهون اهتمامهم إلى الخمر والوجبات السريعة، وهكذا. حارب الناشطون سوء معاملة الأطفال، وهو أمر مقبول. لكنهم بعدها يريدون أيضًا منع ضرب الأرداف، وإذا توصلوا إلى ذلك، سيمنعون أي شيء آخر يعتبرونه هم مؤذياً. ولن يقتنعوا إلا عقب سيطرتهم على ممارسات تربية الطفل، ليتسنى لهم الاهتمام بقضية أخرى.

٢٢٠- لنفترض أنك طلبت من اليساريين وضع قائمة بالممارسات الخاطئة في المجتمع، وطبقت كل تغيير اجتماعي طالبوا به، سوف يجدون، في غضون عامين، قضية أخرى يشتكون منها ويعتبرونها «شراً» اجتماعيًا يجب تغييره، ولا ينتج دافع اليساري

المحفز عن انزعاجه من الاضطرابات الاجتماعية، بل تتركز على إشباع حاجته إلى السلطة وفرض حلوله على المجتمع.

٢٢١- لا يستطيع العديد من اليساريين من النوع المفرط اجتماعياً ممارسة السلطة بالأساليب المتبعة لدى الآخرين بسبب القيود المفروضة على أفكارهم وسلوكياتهم والناجمة عن تنشئتهم الاجتماعية المفرطة. لذا، يتمحور دافعهم السلطوي حول الأخلاقيات ويناضلون لإلباس بقية أفراد المجتمع رداء أخلاقهم.

٢٢٢- إن اليساريين، خصوصاً أولئك المنتمين إلى النوع المفرط اجتماعياً، هم المؤمنون الحقيقيون بمعنى كتاب إريك هوفر «المؤمن الصادق». لكن ليس كل المؤمنين الصادقين هم من نفس نوع اليساريين السيكولوجي. من المفترض أن يكون النازي مؤمناً حقيقياً على سبيل المثال، لكنه مختلف نفسياً تماماً عن اليساري. وبسبب قدرتهم على التفاني الذاتي في قضية ما؛ فإن المؤمنين الحقيقيين يعتبرون عناصر مفيدة وضرورية لأي حركة ثورية. وهذه مشكلة يتوجب أن نعترف بها، فنحن لا نعرف كيف نتعامل معهم، فليس من المؤكد كيف يمكن تسخير طاقات المؤمن الحقيقي لثورة ضد التكنولوجيا. وكل ما يمكن قوله الآن هو أن تجنيد المؤمن الحقيقي لن يكون آمناً على الثورة ما لم يقتصر التزامه على تدمير التكنولوجيا. فحين يكون ملتزماً بقيم أخرى، فإنه قد يرغب في استخدام التكنولوجيا كأداة لتحقيق تلك القيم أيضاً. (انظر الفقرتين ٢٠٠ و٢٠١).

٢٢٣- قد يحتج بعض القراء بالقول: «هذه الآراء عن اليسارية

مجرد حماقات. أعرف فلان وفلان اليساريين وليس لديهم هذه النزعات الاستبدادية». والرد على الاعتراض: إن معظم اليساريين محترمون ويعتقدون صدقًا بقيم التسامح (إلى حد معين)، ولا يتبعون أساليب ملتوية وتعسفية لتحقيق أهدافهم الاجتماعية. ولا تنطبق آراؤنا حول اليسارية على جميع اليساريين، لكنها تصف طابع حركتهم العام، الذي لا يُحدد بناءً على النسب العددية لمختلف المتمين إلى الحركة.

٢٢٤- تهيمن رغبة السيطرة على اليساريين في مواقع السلطة، ويحرصون على الوصول إليها. بينما لا يتفق اليساريون من النوع الدمث وسهل الانقياد مع قادتهم المتعطشين، ولا يستطيعون معارضتهم، ولأنهم يحتاجون إلى عقيدتهم اليسارية ولا يستطيعون التخلي عنها، يتأقلمون مع القادة. يمتلك بعض اليساريين الشجاعة لمعارضة النزعات الاستبدادية المنبثقة، بيد أنهم يفقدون دعم وتأييد الأغلبية، لأن اليساريين المتعطشين للسلطة أفضل تنظيمًا وقوة، وأكثر قسوة وانتهازية ونفوذاً.

٢٢٥- تجلت هذه الظاهرة في روسيا والبلدان التي حكمها اليساريون. وقبل انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، لم تتعرض كثيرًا لانتقاد اليساريين الغربيين الذين قد يعترفون بارتكاب الاتحاد السوفييتي أمور خاطئة، لكنهم يحاولون العثور على أعذار للشيوعيين بالحديث عن أخطاء الغرب مرة أخرى. يعارضون أيضًا مقاومة الغرب العسكرية للعدوان الشيوعي والغزو الأميركي لفيتنام،

وعندما اجتاحت القوات السوفييتية أفغانستان، التزموا الصمت لأن عقيدتهم اليسارية ترفض مواجهة الشيوعية. حاليًا، أصبح «الصواب السياسي» مهيمنًا في الجامعات، ولا يقبل اليساريون بقمع الحرية الأكاديمية، لكنهم يتكيفون معها.

٢٢٦- بالتالي، يتسم العديد من اليساريين بالاعتدال والتسامح الذي لا يعارض استبداد اليسارية ونزعتها الشمولية.

٢٢٧- يعاني نقاشنا حول اليسارية من ضعف شديد، ولا يزال معنى كلمة «اليساري» غامضًا، و قد لا نستطيع فعل الكثير إزاء ذلك. في الوقت الحاضر، فالحركة اليسارية تتجزأ إلى مجموعة من الحركات الناشطة. مع ذلك، لا يمكن اعتبار مختلف الحركات الناشطة يسارية، وتشمل بعض الحركات الناشطة (مثل أنصار الدفاع عن البيئة الراديكاليين) شخصيات يسارية وأخرى لا يسارية، التي يتحتم عليهم التعاون مع اليساريين لإدراك ماهية العمل بصورة أفضل. تتلاشى أطياف اليساريين تدريجيًا إلى أنواع لا يسارية، مما يضاعف صعوبة تحديد خصائص اليساريين. ويتأطر مفهومنا لليسارية من خلال المناقشة التي أجريناها في هذه المادة البحثية، وننصح القارئ بإصدار حكمه الخاص وتعيين سمات اليساري.

٢٢٨- من المفيد وضع قائمة لمعايير تمييز الحركة اليسارية، التي لا يمكن تطبيقها بشكل حاسم وقطعي على جميع اليساريين. قد يستوفي بعض الأفراد معايير محددة بدون أن يكونوا يساريين،

وقد لا تنطبق هذه المعايير على بعض اليساريين. استعن برأيك الشخصي.

٢٢٩- يتوجه اليساري نحو المذهب الجماعي على نطاق واسع. ويشدد على واجب الفرد لخدمة مجتمعه وواجب المجتمع للاعتناء بالفرد. كما أنه لا ينسجم مع مذهب الفردانية، وغالبًا ما يتحدث بنبرة أخلاقية. وينزع إلى سيطرة السلاح، والتربية الجنسية والوسائل التعليمية «المستنيرة» سيكولوجيًا، التخطيط الاجتماعي، العمل الإيجابي، التعددية الثقافية، وهو يميل لأن يعرّف مع الضحايا، يعارض المنافسة والعنف (لكنه يبرر العنف لليسارين)، كما يستخدم عبارات شائعة مثل: «العنصرية»، «التحيز الجنسي»، «رهاب المثلية»، «الرأسمالية»، «الإمبريالية»، «الاستعمار الجديد»، «الإبادة الجماعية»، «التغيير الاجتماعي»، «العدالة الاجتماعية»، و«المسؤولية الاجتماعية». وقد تكون أفضل ميزة تشخيصية لليساري تعاطفه مع الحركات التالية: النسوية، حقوق المثليين، حقوق الأقليات والأعراق المتباينة، حقوق المعاقين، حقوق الحيوانات، والتغيير السياسي. وينتمي المتعاطف بشدة مع جميع هذه الحركات إلى اليسارية حتماً.

٢٣٠- أخطر اليساريين هم أولئك المتعطشون للسلطة، الموصوفون بالغرور والعنجهية، والمتزمتون في نهجهم العقائدي، لكن اليساريين الأكثر خطورة هم أولئك المفرطون اجتماعيًا، الذين يتجنبون مظاهر العدوانية المزعجة، يحجمون عن إبداء نزعتهم اليسارية، يعملون بهدوء لتدعيم قيم الجماعة، يستثمرون التقنيات

السيكولوجية «المستنيرة» لتنشئة الأطفال الاجتماعية المفرطة، ويعتنقون مبدأ اتكال الفرد على النظام.

يشبه هؤلاء اليساريون المشفرون (كما نطلق عليهم) فئات معينة من البرجوازية من الناحية العملية، ويختلفون عنهم في السيكولوجيا والأيديولوجيا والدوافع. يحاول البرجوازيون تمكين النظام من السيطرة على الشعب لحماية نمطهم المعيشي، أو يفعلون ذلك لأن مواقفهم تقليدية. ويحاول اليساري الغامض تمكين النظام لأنه يؤمن بأيديولوجية الجماعة والوحدة. يتميز اليساري المشفر المفرط اجتماعيًا بدافع التمرد الأضعف ونشأته الاجتماعية الأكثر أمانًا. ويختلف عن البرجوازية الاجتماعية المتعارف عليها بشعور النقص العميق في داخله، الذي يجعله يكرس جهوده لخدمة قضيته والانغماس وسط الجماعة. وقد يكون حافزه الواهن باتجاه السلطة أقوى من البرجوازي المألوف.

ملاحظة أخيرة

٢٣١- اشتمل البحث على إفادات وتعبيرات غير دقيقة يجب تناولها بشروط وقيود. وقد تكون بعض وجهات النظر خاطئة بشكل قاطع. أدى الافتقار إلى بعض المعلومات وحاجة الاختصار إلى صياغة تأكيدات غير دقيقة أو عدم إضافة البيانات اللازمة. وفي مناقشة من هذا النوع، يجب على المرء الاعتماد على الحكم البديهي، الذي يخطئ أحيانًا. لذلك، لا ندعي أن البحث يعبر عن تقدير تقريبي للحقيقة.

٢٣٢- رغم ذلك، فنحن نثق أن الخطوط العامة للصورة التي رسمناها هنا صحيحة تقريباً. ثمة نقطة ضعف واحدة ممكنة هي تصويرنا لليسارية في شكلها الحديث كظاهرة غريبة على عصرنا وإحدى علامات تعطيل عملية السلطة. لكن ربما نكون مخطئين، فمن المؤكد أن الأنواع المفرطة اجتماعياً التي تحاول إرضاء دوافعها للسلطة من خلال فرض أخلاقياتها على الجميع كانت موجودة منذ وقت طويل.

ولكننا نعتقد أن الدور الحاسم الذي تلعبه مشاعر الدونية، وتدني احترام الذات، والعجز، وتعريف الذات كضحية من قبل من لم يكونوا ضحايا، هذه من خصائص اليسارية الحديثة. بالتأكيد يمكن رؤية من يعرف نفسه كضحية وهو ليس كذلك في يساريي القرن التاسع عشر والمسيحية المبكرة، لكنها أبعد من أن تلاحظ، وأعراض تدني احترام الذات، وغيرها، لم تكن واضحة في هذه الحركات أو في أية حركات أخرى كما هي الحال في الحركات اليسارية الحديثة. لكننا لسنا في وضع يمكننا من التأكيد بثقة على عدم وجود مثل هذه الحركات قبل اليسارية الحديثة، وهذا السؤال المهم يجب على المؤرخين أن يعيروه انتباهًا.

ملاحظات

١. (الفقرة ١٩) نؤكد على أن «جميع» -أو حتى أغلبية- المتنمرين والمنافسين القساة يعانون شعورًا بالدونية.

٢. (الفقرة ٢٥) خلال العصر الفيكتوري، عانى العديد من الأشخاص الاجتماعيين أكثر من اللازم مشكلات نفسية خطرة نتيجة قمعهم أو محاولة قمع مشاعرهم الجنسية. أسس فرويد على ما يبدو نظرياته على أشخاص من هذا النوع. أما اليوم، فإن تركيز التنشئة الاجتماعية قد تَحوَّل من الجنس إلى العدوان.

٣. (الفقرة ٢٧) ليس من الضروري أن يتضمن الأمر متخصصين في الهندسة أو في العلوم «الصعبة».

٤. (الفقرة ٢٨) هناك العديد من أفراد الطبقات المتوسطة والعليا ممن قاوموا بعض هذه القيم، ولكن عادةً ما تكون مقاومتهم سرية بدرجة أكبر أو أقل. تظهر تلك المقاومة في وسائل الإعلام بقدر محدد للغاية، حيث أن الهدف الرئيسي من الدعاية في مجتمعنا يصب في صالح القيم المعلنة.

السبب الرئيسي الذي يُعزى إليه حقيقة أن هذه القيم -إذا جاز

التعبير- أصبحت القيم الرسمية لمجتمعنا هي أنها مفيدة للنظام الصناعي. لا يحظى العنف بالتشجيع لأنه يُعطل عمل النظام. كما لا تحظى العنصرية بالدعم لأن الصراعات العرقية أيضًا تعوق النظام، والتمييز من شأنه أن يهدر مواهب أعضاء مجموعات الأقلية الذين قد يكون لهم منافع للنظام. يجب «معالجة» الفقر لأن الطبقة الدنيا تتسبب في مشاكل للنظام، حتى أن التواصل مع هذه الطبقة الدنيا يقلل من أخلاقيات الطبقات الدنيا. جرى تشجيع النساء على الحصول على وظائف لأن مواهبهن مفيدة للنظام، والأهم من ذلك أن بحصولهن على وظائف يصبحن مندمجات بشكل أفضل في النظام ومرتبطات بشكل مباشر به بدلًا من عائلاتهن. وهذا من شأنه أن يساعد على إضعاف التماسك الأسري. (يقول قادة النظام إنهم يريدون تقوية الأسرة، ولكن ما يقصدونه في الحقيقة أنهم يريدون أن تصبح الأسرة أداة فاعلة في التنشئة الاجتماعية للأطفال وفقًا لاحتياجات النظام. ونحن نناقش في الفقرات ٥١ و٥٢ فكرة أن النظام لا يمكن أن يتحمل أن يسمح للأسرة أو لغيرها من المجموعات الاجتماعية صغيرةِ النطاق أن تصبح قوية أو مستقلة ذاتيًّا).

٥. (الفقرة ٤٢) قد يقال إن أغلبية الناس لا تريد أن تأخذ قراراتها بأنفسها ولكن يريدون من القادة أن يفكروا لهم بدلًا منهم. هناك ثمة جانب من جوانب الحقيقة في هذا الأمر. يحب الناس اتخاذ قراراتهم في الأمور الصغيرة، ولكن حين يتعلق الأمر باتخاذ قرارات تتعلق بأسئلة صعبة أو أساسية فإن ذلك يتطلب صراعًا نفسيًّا، ومعظم الناس يكرهون الصراعات النفسية. لذلك، يميلون

إلى الاتكال على الآخرين في اتخاذ القرارات الصعبة. بَيد أن ذلك لا يعني أنهم يحبون أن تُفرض عليهم القرارات دون أن تكون لهم فرصة إحداث تأثير في تلك القرارات. إن أغلبية البشر خلقوا تابعين بالفطرة وليسوا قادة، ولكنهم يحبون أن يكون لديهم تواصل شخصي مباشر مع قادتهم، يريدون أن يكونوا قادرين على التأثير في القادة وأن يشاركوا بقدر ما في عملية صنع القرارات حتى الصعبة منها. على الأقل، إنهم يوافقون على أنهم بحاجة إلى تلك الدرجة من الاستقلالية.

٦. (الفقرة ٤٤) بعض الأعراض المذكورة مشابهة لتلك التي تظهر على الحيوانات التي تحبس في أقفاص.

لتوضيح كيف تنشأ هذه الأعراض نتيجة للحرمان فيما يتعلق بعملية القوة:

إن الفهم المنطقي للطبيعة البشرية يخبرنا بأن عدم وجود الأهداف التي يتطلب تحقيقها بذل الجهد يؤدي إلى الشعور بالملل، وذلك الملل إذا ما طال يؤدي في نهاية المطاف إلى الاكتئاب. والإخفاق في تحقيق الأهداف يؤدي إلى الإحباط وانخفاض تقدير الذات. يؤدي الإحباط بدوره إلى الغضب، والغضب إلى انتهاج سلوك عدواني، والذي في كثير من الأحيان يظهر في شكل إساءة معاملة شريك الحياة أو الأطفال. وقد ثَبت أن الإحباط المستمر لفترة طويلة يؤدي عادةً إلى الاكتئاب وأن الاكتئاب يميل إلى التسبب في الشعور بالذنب، واضطرابات النوم، واضطرابات في الأكل والشعور بمشاعر سيئة

تجاه الذات. أولئك الذين يميلون نحو الاكتئاب يبحثون عن المتعة بوصفها ترياقًا لهم، ومن ثم يقعون في نهم المتعة والممارسة المفرطة للجنس، مع بعض الانحرافات كوسيلة للحصول على تجارب جديدة. والملل أيضًا بدوره يميل إلى التسبب في الإفراط في البحث عن المتعة، حيث أن افتقار الأشخاص إلى الأهداف في حياتهم تجعلهم يعتبرون المتعة هدفًا في حد ذاته. انظر الرسم البياني المرافق.

ما سبق هو عبارة عن شرح مبسط، فالواقع أكثر تعقيدًا. وبالطبع، لا يمثل الحرمان -فيما يتعلق بعملية القوة- السبب «الوحيد» للأعراض الوارد ذكرها.

وبالمناسبة، عندما نذكر الاكتئاب فإننا لا نقصد بالضرورة ذلك الاكتئاب الحاد الذي يستلزم مشورة الاختصاصي النفسي. ففي أغلب الأحيان، ما تحدث هي أشكال خفيفة من الاكتئاب. وعندما نتحدث عن الأهداف، فنحن لا نعني بالضرورة أيضًا تلك الأهداف المدروسة طويلة المدى. بالنسبة إلى العديد من الأشخاص أو قل أغلبهم على مدار التاريخ الإنساني، فإن الأهداف التي تتعلق بتأمين الغذاء (مجرد توفير الفرد للطعام له ولأسرته من يوم إلى آخر) تعتبر كافية تمامًا.

٧. (الفقرة ٥٢) يمكن أن نضع استثناءً جزئيًا للجماعات القليلة التي لا تُعنى أو تهتم سوى بنفسها، مثل «الأميش»[1] وهي طائفة

---

(١) «الأميش»: هي طائفة مسيحية تجديدية العماد تتبع الكنيسة المنونية. نشأت الطائفة في العصور الوسطى، وهم يؤمنون بالانعزال عن العالم الخارجي وعن أي محاولات لدمجهم أو خلطهم بمجتمعات وتعاليم أخرى.

تأثيرها ضئيل على المجتمع الأوسع. وبعيدًا عن هؤلاء، هناك بعض المجتمعات الأصلية التي تتواجد على نطاق صغير في أمريكا اليوم. على سبيل المثال، عصابات الشباب و«كالتس»[1]، فالجميع يعتبرهم مصدر خطر، وهم كذلك بالفعل، لأن أفراد تلك الجماعات يكون ولاؤها بعضها لبعض في المقام الأول بدلًا من أن يكون للنظام. لذلك، فإن النظام لا يمكنه السيطرة عليهم.

والغجر كذلك، حيث أنهم عادة ما يفلتون من السرقة والاحتيال لأن انتماءاتهم تقضي بأنهم يمكنهم دائمًا اللجوء إلى غيرهم من الغجر للإدلاء بشهادة «تثبت» براءتهم. ومن الواضح أن النظام سيصبح في مأزق صعب في حال زادت أعداد الأشخاص المنتمين إلى تلك الجماعات.

بعض من المفكرين الصينيين في أوائل القرن العشرين ممن كانوا مهتمين بتحديث الصين أدركوا ضرورة تفتيت المجموعات الاجتماعية الصغيرة مثل الأسرة (وفقًا لسون يات - سين)، فقد احتاج الشعب الصيني إلى موجة جديدة من حب الوطن، والتي من شأنها أن تؤدي إلى نقل الولاء من الأسرة إلى الدولة.. (وحسب ما قاله لي هوانج) فإن الأفكار التقليدية، ولا سيما تلك الخاصة بالأسرة كان يجب التخلي عنها إذا كنا نريد للوطنية أن تطور الصين. (تشيستر سي. تان، «مفكر سياسي صيني في القرن العشرين» الصفحة ١٢٥، والصفحة ٢٩٧).

---

(١) «كالتس»: يشير المصطلح إلى مجموعة اجتماعية لها معتقدات وممارسات خاصة توصف بتطرفها اجتماعيًا ولكن ذلك ليس أكيدًا.

٨. (الفقرة ٥٦) نعم، نعلم أن أمريكا في القرن التاسع عشر كانت تعاني مشكلات كان بعضها عويصًا، ولكن من باب الشجاعة ينبغي أن نعبر عن أنفسنا باستخدام مصطلحات مبسطة.

٩. (الفقرة ٦١) يجب أن نترك جانبًا «الطبقة الدنيا»، فنحن نتكلم عن الاتجاه السائد.

١٠. (الفقرة ٦٢) بعض علماء الاجتماع والمعلمين وأساتذة «الصحة العقلية» ومن على شاكلتهم يبذلون قصارى جهدهم ليضعوا الدوافع الاجتماعية في المجموعة ١ بأن ينظروا إلى الأمر من منطلق أن كل شخص يتمتع بحياة اجتماعية مرضية.

١١. (الفقرتان ٦٣، ٨٢) هل الدافع وراء الاستحواذ على المادة الذي لا نهاية له هو خلق صناعة الإعلان والتسويق؟ بالتأكيد ليس هناك دافع إنساني فطري نحو الاستحواذ على المادة. هناك العديد من الثقافات يرغب الناس بها في اقتناء ثروة مالية تجاوز إلى حد ما القدر اللازم لإشباع احتياجاتهم البدنية الأساسية (سكان أستراليا الأصليون، ثقافة الفلاحين المكسيكيين التقليدية، بعض الثقافات الإفريقية). وعلى الصعيد الآخر، كان هناك أيضًا العديد من ثقافات ما قبل الصناعة التي لعب الاستحواذ المادي فيها دورًا مهمًّا. لذا، لا يسعنا أن ندَّعي أن ثقافة اليوم القائمة على الاستحواذ هي نتاج صناعة الإعلانات والتسويق فقط. بيد أن من الواضح أن صناعة الإعلانات والتسويق لعبت دورًا مهمًّا في خلق الثقافة. فالمؤسسات الكبيرة التي تنفق الملايين على الإعلانات لن تنفق

ذلك الكم من الأموال دون أن يكون لديها دليل دامغ على أنها ستستردها في شكل مبيعات متزايدة. منذ عامين، قابل أحد أعضاء فريدم بلاك أحد مديري المبيعات والذي كان صريحًا بدرجة كافية حتى أنه قال له: «عملنا هو أن نجعل الأشخاص يشترون أشياءً لا يريدونها ولا يحتاجونها». ثم وصف كيف أن أحد مندوبي المبيعات غير المدربين قد يخبر الناس بحقائق المنتج، ولا يحقق أي مبيعات على الإطلاق، في حين أن رجل المبيعات المدرَّب والمتمرس يمكنه أن يحقق الكثير من المبيعات إلى الأشخاص أنفسهم. وهذا يبين أن الناس يتم التلاعب بهم لشراء أشياء هم ليسوا بحاجة إليها حقًا.

١٢. (الفقرة ٦٤) إن مشكلة انعدام الهدف تبدو كما لو أنها أصبحت أقل حدة خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة، لأن الناس يشعرون الآن بأنهم أقل أمانًا من الناحية البدنية والاقتصادية بالمقارنة بما سبق. والحاجة إلى الأمان تمدهم بهدف. بيد أن انعدام الهدف قد جرى استبدال به الإحباط من جراء صعوبة الحصول على الأمان. نحن نؤكد على مشكلة انعدام الهدف لأن الليبراليين واليساريين سيرغبون لو استطاعوا بحل مشاكلنا الاجتماعية عن طريق الحصول على ضمان اجتماعي لأمان كل شخص؛ ولكن لو كان بالإمكان فعل ذلك، فإن ذلك سيعيدنا إلى مشكلة انعدام الهدف. فالمسألة الحقيقية ليست ما إذا كان المجتمع ينفق بسخاء أو يشح من أجل تأمين الناس؛ المشكلة تكمن في أن الناس يعتمدون على النظام في تأمينهم بدلًا من أن يكون الأمر في متناول أيديهم. وهذا على أي حال يعد جزءًا من سبب قيام بعض الأشخاص

بالمناداة بحق امتلاك سلاح؛ فإن حيازة بندقية يضع ذلك الجانب من أمانهم في أيديهم.

١٣. (الفقرة ٦٦) إن جهود المحافظين لتقليص كمية لوائح الحكومة لا تفيد سوى الرجل المتوسط. لسبب واحد، هو أنه لا يمكن حذف سوى جزء بسيط من اللوائح لأن معظمها ضروري. ولسبب آخر، فإن معظم الجهود المبذولة لتقليص اللوائح تؤثر على الشركات بدلًا من الفرد العادي، لذلك فإن التأثير الرئيسي هو سحب السلطة من الحكومة وإعطاؤها لمؤسسات خاصة. وهذا يعني بالنسبة إلى الفرد العادي أن تدخُّل الحكومة في حياته تم استبدال به التدخل من المؤسسات الكبرى، والتي قد تسمح على سبيل المثال بأن تُلقى كيماويات بدرجة أكبر في الماء وتسبب له سرطانًا، أي إن المحافظين يستفيدون من الرجل العادي بنهبه واستغلال استيائه من الحكومات الكبيرة لتعزيز سلطة الشركات الكبيرة.

١٤. (الفقرة ٧٣) عندما يوافق شخص ما على الغرض الذي استُخدمت من أجله الدعاية في قضية ما، فهو يسمي ذلك بصورة عامة «إبلاغ» أو يُضفي عليه بعضًا من لطف التعبير. بيد أن الدعاية تظل دعاية بصرف النظر عن الغرض الذي تستخدم من أجله.

١٥. (الفقرة ٨٣) إننا لا نعبر عن قبولنا أو رفضنا لغزو بنما. نحن فقط نستخدمه لتوضيح نقطة معينة.

١٦. (الفقرة ٩٥) عندما كانت المستعمرات الأمريكية تخضع للحكم البريطاني كان هناك ضمانات قانونية فعالة للحرية -سواء

كثرت أو قلت- أكثر من تلك التي كانت موجودة عقب تفعيل الدستور الأمريكي، ومع ذلك كان هناك المزيد من الحرية الشخصية في أمريكا ما قبل الصناعة -سواء قبل حرب الاستقلال أو بعدها- أكثر من تلك التي أصبحت متاحة بعد أن تفشت الثورة الصناعية في هذا البلد. وهذا اقتباس من كتاب «العنف في أمريكا: وجهات نظر تاريخية ومقارنة»، بقلم هوج دافيس جراهام وتيد روبرت جر، الفصل ١٢ بقلم روبرت لين، الصفحات ٤٧٦ -٤٧٨:

«إن الارتفاع التدريجي لمعايير اللياقة وما يتبعه من الاعتماد المتزايد على إنفاذ القانون الرسمي (في القرن التاسع عشر في أمريكا)... كان شائعًا في المجتمع بأكمله... يستغرق التغيير في السلوك الاجتماعي وقتًا طويل المدى وهو واسع الانتشار للغاية ما يشير إلى وجود اتصال بينه وبين أهم العمليات الاجتماعية المعاصرة؛ أي تلك المتعلقة بالتحضر الصناعي نفسه». «سجلت معدلات المواليد في ماساتشوستس عام ١٨٣٥ حوالي ٦٦٠،٩٤٠،٨١ في المئة في المناطق الريفية، والأغلبية الساحقة منهم ولدوا قبل الثورة الصناعية، حيث أنهم المواطنون ممن اعتادوا على الحرية الشخصية. فسواء كانوا سائقي شاحنات أو مزارعين أو حرفيين، فقد اعتاد جميعهم على وضع جداول عملهم الخاصة وطبيعة عملهم جعلتهم مستقلين جسمانيًّا بعضهم عن البعض... ولم تكن المشاكل الفردية والخطايا وحتى الجرائم تعد سببًا بشكل عام لحدوث مشاكل اجتماعية بشكل أوسع...». ولكن تأثير الحركتين على المدينة والمصنع -كلتيهما اجتمعتا في ١٨٣٥- كان له تأثير تدريجي على السلوك الشخصي على مدار القرن التاسع عشر وحتى

بدايات القرن العشرين. تطلبت المصانع انتظامًا في السلوك وحياة تذعن للوقت والتقويم، وطلبات رئيس العمال والمشرف. وفي المدينة أو القرية، منعت احتياجات العيش في الأحياء المكتظة بالسكان أفعالًا كثيرة كان لا يمكن الاعتراض عليها فيما سبق، حيث كان الموظفون أصحاب الياقات الزرقاء والبيضاء في المؤسسات الكبرى معتمدين بشكل متبادل على زملائهم؛ حيث أن عمل أحد الأشخاص يناسب الآخر، لذلك لم تكن أعمال الشخص تخضع لملكيته.

«إن نتائج التنظيم الجديد للحياة والعمل أصبحت واضحة عام ١٩٠٠، عندما صُنفت نسبة ٧٦ في المئة من سكان ولاية ماساتشوستس البالغ عددهم من ٢،٨٠٥،٣٤٦ بوصفهم مدنيين. وأكثر السلوكيات العنيفة أو غير القويمة التي كانت مقبولة في المجتمع المستقل لم تعد كذلك في ظل المناخ الأكثر رسمية وتعاونًا في الفترة اللاحقة لذلك... والنزوح إلى المدن -باختصار- تسبب في خلق جيل أكثر تعقيدًا وأكثر اجتماعية و«تحضرًا» عن أسلافه».

١٧. (الفقرة ١١٧) إن المدافعين عن النظام مولعون بالاستشهاد بحالات حُسمت فيها الانتخابات بصوت واحد أو صوتين، ولكن تلك الحالات نادرة.

١٨. (الفقرة ١١٩) «اليوم، في الأراضي المتقدمة تكنولوجيًا، يعيش الأشخاص حياة متشابهة للغاية على الرغم من الاختلافات الجغرافية والدينية والسياسية. فالحياة اليومية لموظف بنك مسيحي في شيكاغو وموظف بنك بوذي في طوكيو وموظف بنك شيوعي

في موسكو متشابهة بشكل كبير وبدرجة أكبر من تشابه حياة أي رجل عاش قبل ألف عام. هذه التشابهات هي نتيجة للتكنولوجيا المشتركة...». إل. سبيرجو دي كامب، «المهندسون القدامى»، طبعة بالانتين، الصفحة ١٧.

إن حياة موظفي البنك الثلاثة ليست «متطابقة»، حيث أن الأيديولوجية لها بعض التأثيرات. غير أن جميع المجتمعات التكنولوجية -من أجل البقاء- يجب أن تتطور تقريبًا بأن تسلك المسار نفسه.

١٩. (الفقرة ١٢٣) فكر في أنه يمكن لمهندس جينات غير مسؤول أن ينتج مجموعة من الإرهابيين.

٢٠. (الفقرة ١٢٤) وكمثال آخر للعواقب غير المرغوب فيها للتقدم الطبي، هَب أن هناك دواء موثوقًا به للسرطان جرى اكتشافه. حتى لو كان العلاج باهظ الثمن بدرجة تجعل من الصعب توافره سوى للنخبة، سيقلل ذلك من حافزهم للتوقف عن تجنب استهلاك المواد المسرطنة في البيئة.

٢١. (الفقرة ١٢٨) بما أن العديد من الأشخاص قد يجدون مفارقة في حقيقة أن عددًا كبيرًا من الأشياء الجيدة يمكن أن تزيد من أمر سيئ، سنوضح ذلك باستخدام القياس. هَب أن السيد/ أ يلعب الشطرنج مع السيد/ ب، بينما ينظر السيد/ ج -وهو ذو خبرة- من خلف كتف السيد/ أ. بالطبع يريد السيد/ أ أن يربح هذه اللعبة، لذلك إذا أشار السيد/ ج عليه بلعبة جيدة، فإنه بذلك يُسدي إلى

السيد/ أ معروفًا. ولكن فلنفترض الآن أن السيد/ ج أخبر السيد/ أ بجميع اللعبات. في كل لعبة يشير على السيد/ أ بإجرائها، فإنه يُسدي إليه معروفًا بإخباره اللعبة الأفضل، ولكن بإخباره جميع اللعبات فإنه بذلك يفسد عليه اللعبة، حيث أنه لم يعد هناك هدف على الإطلاق إذا قام أي شخص آخر بتحركاته.

إن وضع الإنسان الحديث يشابه وضع السيد/ أ. فالنظام يجعل حياة الفرد أسهل بطرق لا حصر لها، ولكن بفعله ذلك يجرده من التحكم في مصيره.

٢٢. (الفقرة ١٣٧) نحن هنا ننظر فقط إلى تضارب القيم داخل التيار الرئيسي. من أجل التبسيط نترك قيم صورة «الدخيل» مثل فكرة أن الطبيعة البرية هي أكثر أهمية من الرفاه الاقتصادي البشري.

٢٣. (الفقرة ١٣٧) إن المصلحة الذاتية ليست هي بالضرورة المصلحة الذاتية المادية، حيث يمكن أن تتجلى في بعض الاحتياجات النفسية -على سبيل المثال- عن طريق تعزيز الأيديولوجية الشخصية أو الدين.

٢٤. (الفقرة ١٣٩) التأهيل: من مصلحة النظام السماح بدرجة معينة من الحرية في بعض المناطق. على سبيل المثال، الحرية الاقتصادية (مع وجود بعض القيود المناسبة) أثبتت فعاليتها في تعزيز النمو الاقتصادي، ولكنها تلك الحرية المحدودة والمخطط لها فقط، حيث يجب أن يظل الشخص مقيدًا، حتى إذا كانت القيود طويلة في بعض الأحيان. (انظر الفقرة ٩٤، ٩٧)

٢٥. (الفقرة ١٤٣) نحن لا نقصد إلى أن احتمالية بقاء مجتمع ما كانت دائمًا تتناسب عكسيًّا مع كمية الضغط أو عدم الراحة التي يُخضع المجتمع الناس لها، فهذا بالتأكيد ليس هو الحال. هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن العديد من المجتمعات البدائية جعلت أفرادها يتعرضون لضغط أقل مما فعل المجتمع الأوروبي، ولكن المجتمع الأوروبي أثبت أنه أكثر كفاءة من أي مجتمع بدائي ودائمًا ما ربح الصراعات مع تلك المجتمعات وذلك بسبب المزايا التي تقدمها التكنولوجيا.

٢٦. (الفقرة ١٤٧) إذا كنتم تعتقدون أن إنفاذ القانون بشكل أكثر فعالية هو بلا شك أمر محمود لأنه يقمع الجريمة، فتذكروا أن الجريمة وفق التعريف الذي يضعه لها النظام ليست بالضرورة ما تسمونها «أنتم» جريمة. فاليوم، يعد تدخين الماريجوانا «جريمة» وفي بعض الأماكن في الولايات المتحدة تعد حيازة سلاح غير مرخص جريمة أيضًا. وغدًا، قد تصبح حيازة أي سلاح ناري -سواء كان مرخصًا أم لا- جريمة. وقد يحدث الشيء نفسه مع أساليب تربية الأطفال غير المرغوب فيها مثل الضرب على المؤخرة. وفي بعض الدول، يعد التعبير عن الآراء السياسية المعارضة جريمة، وليس هناك ما يؤكد أن ذلك لن يحدث أبدًا في الولايات المتحدة، بما أنه لا دستور أو نظام سياسي يدوم إلى الأبد.

إذا كان المجتمع بحاجة إلى مؤسسة كبيرة وقوية لإنفاذ القانون، فإن هناك شيئًا خاطئًا بدرجة فادحة في ذلك المجتمع؛ فلا بد أنه يُخضع الناس لدرجة حادة من الضغط إذا رفضوا اتباع القواعد، أو

اتبعوها فقط لأنهم مجبورون. العديد من المجتمعات في الماضي كان بها القليل من قوة إنفاذ القانون أو لم يكن بها على الإطلاق.

٢٧. (الفقرة ١٥١) من المؤكد أن المجتمعات السابقة كانت تملك وسائل للتأثير على السلوك البشري، ولكنها كانت بدائية وذات فعالية منخفضة مقارنةً بالوسائل التكنولوجية التي يجري تطويرها الآن.

٢٨. (الفقرة ١٥٢) على الرغم من ذلك، فقد أعرب بعض علماء النفس بشكل علني عن آراء تشير إلى ازدرائهم حرية الإنسان، وقد نُقل عن عالم الرياضيات «كلود شانون» في مجلة «أومني» (أغسطس ١٩٨٧) قوله: «أتصور وقتًا سنكون فيه بالنسبة إلى الإنسان الآلي كما الكلاب حاليًا بالنسبة إلى البشر، وأنا أشجع الآلات».

٢٩. (الفقرة ١٥٤) ليس هناك خيال علمي! بعد كتابة الفقرة ١٥٤ صادفنا مقالًا في مجلة «ساينتيفيك أميريكان» يفيد بأن العلماء يطورون تقنياتهم بنشاط لتحديد مجرمي المستقبل المحتملين ومعاملتهم بمزيج من الوسائل البيولوجية والنفسية. يدافع بعض العلماء عن التطبيق الإلزامي للعلاج، والذي قد يكون متاحًا في المستقبل القريب. (انظر «البحث عن العنصر الجنائي» بقلم دبليو وايت جيبس، مجلة «ساينتيفيك أميريكان»، مارس ١٩٩٥). ربما تعتقد أن هذا أمر لا بأس به لأن العلاج سيجري تطبيقه على أولئك الذين قد يصبحون مجرمين عنيفين. ولكن بالطبع لن يتوقف الأمر عند هذا الحد. بعد ذلك، سيتم تطبيق علاج على أولئك الذين قد

يصبحون سائقين مخمورين (فهم يعرضون حياة الإنسان للخطر أيضًا)، ثم قد نقوم بتجريد ملابس من يقومون بصفع أطفالهم على مؤخرتهم، ثم نطبقه كذلك على أنصار البيئة الذين يقومون بتخريب معدات قطع الأشجار، وفي النهاية سيُطبق على أي شخص يكون سلوكه غير ملائم للنظام.

٣٠. (الفقرة ١٨٤) هناك ميزة إضافية للبيئة باعتبارها تضادًا مثاليًا للتكنولوجيا هي أنها -بالنسبة إلى العديد من الأشخاص- توحي بنوع من التقديس المرتبط بالدين، لذلك فإن الطبيعة يمكن أن تكون مثالية على أساس ديني. صحيح أن الدين كان في العديد من المجتمعات داعمًا ومبررًا للنظام القائم، ولكنه أيضًا قد وفر أساسًا للتمرد. وبالتالي، قد يكون من المفيد إدخال عنصر ديني في التمرد ضد التكنولوجيا، لأن المجتمع الغربي اليوم ليس له أساس ديني قوي. في الوقت الحاضر، يُستخدم الدين كداعم رخيص وشفاف للأنانية ذات المنظور الضيق والنظرة القاصرة (بعض المحافظين يستخدمونه بهذه الطريقة)، أو حتى يتم استغلاله بسخرية لجني المال بسهولة (من قبل العديد من المبشرين)، أو قد يتدهور إلى اللاعقلانية الفجة (الطوائف الأصولية المتعصبة، «كالتس»)، أو يكون ببساطة راكدًا (الكاثوليكية، البروتستانتية الرئيسية). إن أقرب شيء للدين الديناميكي القوي وواسع الانتشار شهده الغرب في الآونة الأخيرة هو عقيدة اليساريين شبه الدينية، لكن المبادئ اليسارية اليوم مجزأة وليس لها هدف واضح وموحد وملهم.

لذلك، فهناك فراغ ديني في مجتمعنا والذي قد يملؤه دين يركز على الطبيعة في مقابل التكنولوجيا. غير أنه سيكون من الخطأ محاولة اختراع دين بشكل اصطناعي لملء هذا الدور، فمثل ذلك الدين المخترع ربما يكون فاشلًا. على سبيل المثال ديانة «غايا»، هل يؤمن بها أتباعها بالفعل أم أنها مجرد تمثيل؟ إذا كان دينهم مجرد تمثيل فإنه سيخفق في النهاية.

ربما من الأفضل عدم محاولة إدخال الدين في صراع الطبيعة مقابل التكنولوجيا ما لم تؤمن حقًّا بهذا الدين بنفسك وتجد أنه يثير استجابة عميقة وقوية وحقيقية لدى العديد من الأشخاص الآخرين.

٣١. (الفقرة ١٨٩) على افتراض أن هذا الدفع الأخير يحدث. من الممكن أن يتم القضاء على النظام الصناعي بطريقة ما تدريجية أو على أجزاء.

٣٢. (الفقرة ١٩٣) من الممكن تصور (عن بُعد) أن الثورة قد لا تحدث سوى بسبب تغير هائل في المواقف تجاه التكنولوجيا، ما يؤدي إلى تفكك تدريجي نسبي وغير مؤلم للنظام الصناعي. ولكن إذا حدث هذا سنكون محظوظين للغاية. ومن الأرجح أن الانتقال إلى مجتمع غير تكنولوجي سيكون صعبًا للغاية ومليء بالصراعات والكوارث.

٣٣. (الفقرة ١٩٥) الهيكل الاقتصادي والتكنولوجي للمجتمع أكثر أهمية بكثير من بنيته السياسية في تحديد الطريقة التي يعيش بها

الرجل العادي (انظر الفقرات ٩٥ و١١٩ والملاحظات ١٦ و١٨).

٣٤. (الفقرة ٢١٥) يشير هذا البيان إلى نسختنا الخاصة من الأناركية. وقد أطلق على مجموعة واسعة من المواقف الاجتماعية مسمى «أناركيين»، وقد لا يقبل العديد ممن يسمون أنفسهم «أناركيين» ما نقره في الفقرة ٢١٥. ومن الجدير بالملاحظة -على أي حال- أن هناك حركة أناركية لا تدعو إلى العنف ربما لن يقبلنا أعضاؤها كأناركيين، وبالتأكيد لن توافق على أساليبنا العنيفة.

٣٥. (الفقرة ٢١٩) العديد من اليساريين يحركهم أيضًا دافع العداء، لكن العداء ربما يَنتُج بشكل قوي عن الحاجة المُلحة للسلطة.

٣٦. (الفقرة ٢٢٩) من المهم أن ندرك أننا نقصد شخصًا يتعاطف مع هذه الحركات باعتبار أنها موجودة اليوم في مجتمعنا. فالشخص الذي يؤمن بأن النساء والمثليين جنسيًّا وغيرهم ينبغي أن يتمتعوا بحقوق متساوية ليس بالضرورة يساريًّا. إن الحركات النسائية والحركات التي تدعو إلى حقوق المثليين وغيرها من تلك التي تتواجد في مجتمعنا لها تلك النبرة الأيديولوجية الخاصة التي تميز اليسارية، وإذا كان المرء يعتقد -على سبيل المثال- أن المرأة يجب أن يكون لها حقوق متساوية، فليس بالضرورة أن يتبع ذلك تعاطف المرء مع النسوية. الحركة كما هي موجودة اليوم.

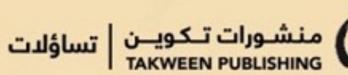
نُشرَ هذا البيان الشهير بـ "بيان مفجّر الجامعات والطائرات" في الصحف الأمريكية، كان السبيل الوحيد لإيقاف سلسلة من عمليات تفجيرية استهدفت شركات البريد والنقل الجوي والجامعات في الولايات المتحدة، والتي استمرت لقرابة الستة عشر عامًا وراح ضحيتها العشرات بين قتيل وجريح، وما كان العقل المدبّر والمنّفذ لهذه التفجيرات سوى تيد كازينسكي كاتب هذا البيان.

وهنا تواجهنا جدلية شائكة مفادها: هل من اللائق ترجمة ونشر أفكار وصلتنا عن طريق عمليات أدت إلى مقتل عدد من الأبرياء؟ إننا وإذ نرفض بالطبع ونستنكر أي نوع من أنواع العنف الموجه للأبرياء، غير أننا نؤمن بأن الحل الأسلم للتعامل مع أي فكرة هو مواجهتها وليس الهروب منها وطمسها.

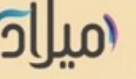
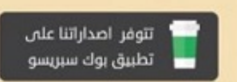
ويبقى همنا الأكبر أن نحاول أن نفهم ما الذي رآه تيد كازينسكي في هذا النظام الذي أطلق عليه "المجتمع الصناعي" فشكل لديه ردة الفعل المتطرفة هذه؟ وهل من الممكن أن تكون أفكاره سليمة لو نزعنا عنها الطابع الإجرامي الذي ربطها به كازينسكي؟ أي هل لو قرأنا هذه الأفكار بتجرّد سنتفق معها أم نرفضها؟ والعديد من التساؤلات والمعضلات التي تواجهنا أثناء تنقلنا بين صفحات هذا الكتاب. هذا البيان مساحة للحوار وتداول الأفكار وطرح البديهيات للشك والتساؤل.

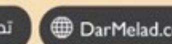
35 ريال سعودي $9 دولار
SAR 35 USD $9


ISBN 978-9921-723-06-9

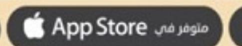


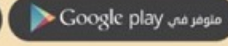
تساؤلات









تصميم الغلاف: إياد عبدالرحمن